أحمد بهجت

زهد اليساريا ليل

دار الشروق

أهل اليسار يا ليل

الطبعة الأولى
١٩٩٤م ـ ١٤١٥هـ

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

أهــل اليســـار يا ليــل

أهل اليسار يا ليل فاتوا مضاجعهم
واتبعزقوا ياليل صحبة وانا معهم

كانت أم كلثوموفيتش تغنى هذه الأغنية فيتردد صداها عند أهل اليسار جميعا . . يستوى فى ذلك الكادحون منهم والرأسماليون. أما الكادحون من أهل اليسار فقد زاد استهلاكهم للبيرة بعد الأحداث المؤسفة التى وقعت لسور الصين وسور برلين وأسوار البيروسترويكا ودول أوروبا الشرقية .

وكان الكادحون ينكشون شعرهم ويرتدون سويترات من الجلد . . ويجلسون فى المقاهى وهم يشربون البيرة ويدخنون السجائر المصرية الرخيصة بالتبادل وينفثون الدخان فى الهواء ويتأملونه وهو يرسم صورا سحابية لا تلبث أن تضيع فى الهواء مثلما ضاعت أحلام العمر .

أما شيوخ اليسار وكهوله فهم يجلسون فى بيوتهم بأثاثها الفرنسى الدافئ . وهم يشربون الكونياك الأرمينى ويأكلون الكافيار الروسى . . ويدخنون السيجار الكوبى ، ويتأملون الدخان وهو يرسم فى الهواء صورا سحابية لا تلبث أن تضيع مثلما ضاعت أحلام العمر .

انتهت أم كلثوموفيتش من أغنيتها الشهيرة ، وساد صمت ثقيل قطعه الرفيق ذو الشعر الأبيض قائلا . . أيها الرفاق نحن فى منعطف جغرافى ومأزق تاريخى ، وقد اجتمعنا لمعرفة أسباب هذه الكارثة .

قال الرفيق ذو النظارة الرمادية : اللعنة . إن كل شىء يتداعى حولنا . . العالم الذى حلمنا ببنائه : الكادحون الذين سعينا لتحريرهم من استغلال رأس المال ، الكولاك الذين تدخلنا لتطوير مفاهيمهم ، البروليتاريا التى قررنا أن تكون لها ديكتاتوريتها . هذا كله يتداعى . . يتساقط حولنا . . ينهار فوق رءوسنا . . كل هذا بسبب الحسد والبيروسترويكا اللعينة .

قال الرفيق ذو الشعر الأبيض : أيها الرفيق عزيزوفيتش . نحن لم نجتمع هنا لتأبين الاشتراكية أو إبداء مشاعر الرثاء المنبثقة من حالة وفاة طبيعية . كما يقع عند البرجوازيين التعساء ، إنما اجتمعنا هنا لدراسة أسباب ما حدث ولتحليل الأحداث الجارية بسرعة الاكسبريس . يجب أن تفهموا أنه إذا كانت الشيوعية قد دخلت غرفة الإنعاش فإن المنهج التحليلى الماركسى أو الدياليكتيك ما زال حيا يلزق . . أقصد ما زال حيا يرزق . .

انعقدت سحب الدخان فى سماء الغرفة ، وجلس الرفاق وقد ران على قلوبهم الهم بعد العبارات الأخيرة ، ثم كسر الصمت الرفيق المسئول عن إدارة عموم الحوار قال : سوف نبدأ جلستنا باسم جميع الكادحين فى العالم ، ولنقف دقيقة حدادا على سور برلين الذى انهار ، ولكى نكون عمليين . يمكن للشيوعيين الأحرار فى العالم الثالث أن يجمعوا التبرعات لبناء سور برلين مرة أخرى ، ومثلما يقول أصحاب اللحى ـ تبرعوا لبناء مسجد نفق شبرا ـ سنقول نحن تبرعوا لبناء سور نفق برلين . .

صفق الجالسون لهذا الاقتراح وتصافحوا ، ولكن الرفيق عزيزوفيتش قال

بوجه صارم وملامح باردة :

لا نريد غوغائية أو ديماجوجية ، نحن مجموعة من الانتلجنسيا المرموقة . وكل مانريد معرفته هو إجابات هذه الأسئلة الثلاثة . .

ماهى أسباب ماحدث ؟ وكيف نعالج الموقف الآن ؟ وماذا سيحدث فى المستقبل ؟ لنبدأ بالرفيق أحمدوف . .

قال الرفيق أحمدوف : إن الاستسلامية الانهزامية ، والتصفوية التعبوية هما السر فى ما حدث ، وعلاج الاشتراكية معروف ، هو مزيد من الاشتراكية أما المستقبل فهوَ أسود من قرن الخروب ، ولكن الفجر سوف يشرق من وراء الأفق اللازوردى الأحمر حاملا معه انتصار الشيوعية ، لقد كان للبورجوازى عبد الوهاب فيلم اسمه انتصار الحب ، وسيكون لنا فيلمنا العظيم وهو انتصار الشيوعية .

لم يصفق أحد من الجالسين ، وجاء الدور على الرفيق لطيفوفسكى فقال وهو يشد أنفاسا من السيجار الكوبى .

إن الشيوعية تصحح نفسها بنفسها أيها الرفاق ، وماحدث عند الرفاق السوفييت أو الرفاق الألمان لم يكن هزيمة للاشتراكية ، إنما كان تطويرا فيها وتحويرا لها لكى تستوعب المتغيرات المادية والميتافيزيقية معا ، وأهم شىء اليوم أيها السادة أن نحتفظ برءوسنا ثابتة فوق أكتافنا ، لنحذر من اليأس . . إن الرفيق لينين هو القائل :

لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس . .

صفق الرفاق طويلا وتبادلوا أنخاب البيرة ولكن أحدهم قال . .

هذه المقولة التاريخية ليست للرفيق لينين ، وإنما هى لمصطفى كامل . .

قال رئيس الجلسة : بل قالها الرفيق لينين قبل مصطفى كامل . .

احتدم الجدل قليلا بحثا عن قائل « لا يأس مع الحياة » ثم نبه رئيس الجلسة إلى أنه ليس مهما من الذى قال ، إنما المهم ماذا قيل . . وبهذه الموضوعية انتقل الرفاق إلى موضوع آخر ، وجاء الدور على الرفيق عباسوفيتش فقال : أيها الرفاق سوف أحاول تحليل الموقف بشكل موضوعى . لقد انقسم اليسار إلى ثلاثة أقسام بعد الأحداث الأخيرة المؤسفة ، هناك المتفائلون ، وهؤلاء يرون أن ما حدث كان تطويرا للشيوعية واستصلاحا لأفكارها البور ، ولا داعى للمبالغة فيما حدث أو الخوف مما حدث لأن ما حدث قد حدث . وهؤلاء ليسوا موضوعيين ، وهناك المتشائمون الذين يتصورون أن النهاية قد أزفت ، ولم يعد هناك مناص من تنظيم إجراءات الجنازة والاتفاق على تشييع الفقيد إلى مثواه الأخير وهؤلاء ليسوا موضوعيين ، أما الموضوعيون حقا فهم «المتشائلون » وهؤلاء يرون أن ما حدث يشبه قول القائل ـ « أريد أن أطلق خطيبتى » كيف يرفع المرء دعوى طلاق على خطيبته . . إن ماحدث كان غير مفهوم بالمرة . . ونحن لانعرف من هو المقصود بهذا الهجوم الامبريالى . . هل المقصود به نظام حكم ، أو نسق حضارى أو تكوين نهضوى ، أو تشكيل تعبوى ، أو إفراز امبريالى . إن تكوين رأى فى هذا كله يقتضى الرجوع إلى الواقع التاريخى ، وقد يكون من الخطأ هذه النظرة الاستردادية الماضوية للتاريخ ، اللهم إلا للتساؤل الإشكالى عما وقع ، وهذا تحليلنا لماحدث .

أعطيت الكلمة بعد ذلك لرفيق يطلق شاربه مثل ستالين فقال : إننى أعترض على هذه الانهزامية التفسيخية . إن تعميق البعد الديمقراطى التحالفى النضالى لليسار العربى يعنى بزوغ فجر الاشتراكية فى مكان جديد هو العالم الثالث ، بعد هذا الغروب المؤسف الذى وقع فى أوروبا الشرقية

وموسكو بعبارة أخرى وبمنتهى الصراحة أقول لقد خذلنا الرفاق فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية ، وحين أقول خذلنا الرفاق فإننى استخدم تعبيرا مهذبا . والحقيقة أنها الخيانة ، لقد وقعت خيانة من رفاق العالم المتقدم للرفاق فى العالم الثالث . . لقد تركونا فى العراء . فراشنا العراء ولحافنا السماء ونحن بدون غطاء وقد دخل البرد وجاء الشتاء .

تصايح الرفاق ما هو الرأى إذن .

قال الرفيق ذو الشارب الستالينى : الرأى أن ننزل تحت الأرض ، نؤلف الحزب تحت الأرض ونقاوم تحت الأرض .

قال رفيق يعمل فى الصرف الصحى وقد ظل صامتا طيلة الوقت : لا أريد أن أحمل اليأس إلى نفوسكم أيها الرفاق ، ولكننى أقول لكم إن المجارى طافحة تحت الأرض فكيف نتحرك هناك ؟

توقف الحوار فجأة حين ضرب الرفيق عبدوفسكى على منضدة الاجتماع بيده ضربة قوية ، وكانت هذه طريقته حين يطلب الكلمة ، استمع إليه الرفاق فقال . .

أيها الرفاق هذا تهريج . . تهريج وثرثرة . . لقد شخص لينين العظيم مرض الثرثرة الثورية ، إنه مرض ينبع من الإحباطات المؤقتة التى تصيب المثقفين الثوريين من هول الزلزال المعادى وترهل حركة المقاومة، وهو مرض يأخذ شكل ترديد الشعارات الثورية وتكرارها ، بغض النظر عن الظروف الموضوعية ، عن نقطة التحول المحددة فى الأحداث . إن الشعارات قد تكون مغرية ورائعة ، ولكن الأرض ليست ملائمة لها ولا الظروف مواتية .

فكر الرفاق فى كلمة عبدوفسكى وسأله الرفيق عزيز وفيتش وهو مقطب الوجه .

ماذا تعنى أيها الرفيق بكلمتك ، هل تتهمنا بالثرثرة الثورية . إن هذا اتهام واضح بالرجعية ، هل تتهمنا بالرجعية ؟ .

قال الرفيق عبدوفسكى : هذه ملحوظة برجوازية ولن أرد عليها ، لقد أدرك كارل ماركس أن الشعوب لن تحرر نفسها باستنساخ تجارب البرجوازية وتكرار خبراتها ، وأن عليها كحتمية تاريخية أن تخلق بوعى ثورى متصاعد أساليب تتمشى مع ظروفها وجواباتها .

قال الرفيق عزيزوفيتش : أيها الرفيق عبدوفسكى أرى كلامك يتسم بقدر متزايد من الثرثرة الثورية والمزايدة والتفسخ ، وأتحدى أن تكون أفكارك هذه من صلب التكتيك الثورى .

تدخل فى الحوار رئيس الجلسة فقال : ياجماعة . . تذكروا أن رجعية أو ثورية أى حوار هى رهن بملاءمته لموازين القوى ودرجة احتدام الصراع والمزاج التعبوى أو التصفوى للجماهير . . نرجو الالتزام بالموضوعية التاريخية والبعد عن المهاترات الجغرافية .

تكلم رفيق نحيل الوجه بارز عظام الوجنتين فقال . .

أيها الرفاق إن لينين العظيم له كتاب اسمه « ما العمل » إننى اقترح أن نقرأ هذا الكتاب قراءة جماعية فلعل فيه حل المشكلة التى وقعنا فيها .

أحضروا الكتاب فوجدوه باللغة الروسية ، ولم يكن بينهم مترجم يعرف هذه اللغة فتأجل الاقتراح إلى أجل غير مسمى .

كان الرفيق شفيقوفسكى يطلب الكلمة ، وحين أمسك الميكروفون بدأ ينتحب نحيبا شديدا . . بدأ البكاء بدون صوت وانتهى بصوت كهزيم الرعد .

قال الرفيق شفيقوفسكى وهو يجهش بالبكاء .

ماذا يفعلون بنا لو تحكموا فينا . . هذا هو السؤال الذى يطرق عقلى أيها الرفاق كما يطرق الشاكوش حائطا فينهار الحائط .

لقد كنا نصنف الناس أصنافا ونقسمهم أقساما ، ونفصل بعضهم عن بعض مثلما يفعل الفكهانى فى البطيخ والشمام والخيار والطماطم . .

كانت هناك الرجعية المنحرفة والبورجوازية المتعفنة ، والامبريالية المستغلة . والإقطاع الذى يلعب دور اللص ، والدين الذى هو أفيون الشعوب .

كان الناس بالنسبة إلينا درجات وفئات . .

اليمين الرجعى واليسار التقدمى وأعداء الثورة وأصدقاء الثورة وأقارب الثورة وحبايب الثورة وطلائع الثورة ومؤخرة الثورة ، وكان لكل واحد من هؤلاء فى السلم الاجتماعى درجة ووضع ، وكان لكل واحد من هؤلاء أمام القانون اعتبار خاص يتصل بدرجته الاجتماعية ، التى يتم تحديدها على أساس صداقته أو عدائه للثورة . .

كانت هناك الحثالة والصفوة ، وكان هناك الدهماء وأعضاء الحزب ، وكان الكافيار من نصيب الصفوة وأعضاء الحزب ، أما الكرنب والبوص المسلوق فكانا معا غذاء الشعوب .

لقد سخرنا كثيرا من الجنة الموعودة التى يتحدث عنها أهل الأديان المختلفة ووعدنا الناس بجنة على الأرض ، ثم فشلنا فى تحقيق الوعد . .

لقد فشل الحكم الشمولى فى توفير الحرية والخبز ، وفشل فى إطلاق طاقات الناس وإظهار مواهبهم ودفعهم للعمل ، كما فشلت الإدارة البيروقراطية

المركزية فى تحقيق التقدم الاقتصادى أو الرخاء ، كما فشل الإلحاد فى إيجاد سبب للحياة الإنسانية وحولها إلى لون من ألوان العبث .

لقد كنا نسجن أعداءنا على أساس أنهم أعداء الشعب ، ونضطهد من يخالفنا فى الرأى على أساس أنه طابور خامس ، ونزدرى كل من يؤمن بعالم آخر وحياة بعد الموت على أساس أنه إما مخدوع بالدين أو متاجر به . . وفى الوقت الذى كان فيه القادة وأعضاء الحزب يتحدثون عن أحزان الملايين والعالم الأفضل كانوا يعيشون فى ترف لم يعرفه الأباطرة والملوك من قبل . .

لقد سقط مبرر النظام وكان انهيار سور برلين مجرد رمز لهذا السقوط . . والسؤال الآن : ماذا يفعلون بنا لو تحكموا فينا ؟

سكت الرفيق قليلا ليلتقط أنفاسه ثم عاد يقول معذرة أيها الرفاق ، ولكن سلوكنا نحن الشيوعيين من أهل العالم الثالث ، يبدو مثل سلوك الديناصورات منذ ملايين السنين . .

إن مشكلة الديناصورات كانت مضحكة ومبكية معا ، إن رءوسها كانت أصغر من أجسامها ، وأجسامها كانت أثقل من أقدامها ، وهكذا تهاوت الأقدام تحت ثقل الجسم . . وتعذرت الحركة على الديناصورات ، وكان الطعام والمياه قريبين منها ، ولكن أقدامها لا تحملها إليهما ، وهكذا تهاوت هذه المخلوقات الجبارة ، وراحت تنظر أمامها فى سهوم ، والحياة تنسل من أجسادها وتتركها لمصيرها المظلم .

نحن نتساءل هذه الأيام فى محافلنا ، هل هو خطأ النظرية الشيوعية أم خطأ التطبيق الاشتراكى ، وأى الخطأين سبق الآخر ، أم إن الأمر كان خطأ النظرية والتطبيق معا . .

وهذا كله لا قيمة له . .

إن البحث عن الخطأ الآن يشبه البحث ـ نظريا ـ عن سبب اشتعال النار. بدلا من محاولة إطفائها عمليا . .

إن السؤال الذى يجب أن يطرح اليوم على أهل اليسار فى العالم الثالث هو التالى .

ما العمل ؟ هل عندكم من جواب لهذا السؤال ؟ . سكت الرفاق قليلا وقال الرفيق ذو السيجار الكوبى .

العمل الحقيقى متعذر فى الوقت الحاضر ، والشىء الوحيد الممكن هو الغطرشة العدوانية . تساءل الرفاق عما يعنيه الرفيق بهذا التعبير الغريب فقال

الغطرشة تعنى صرف الأنظار عما يحدث من زلزال فى العالم الشيوعى كله . وذلك عن طريق افتعال معارك وهمية ، وتوجيه الأنظار إلى قضايا هامشية والهجوم على أهداف لا وجود لها فى الحقيقة .

لنهاجم هذه الأيام أى اتجاه دينى ، معتدلا كان ، أم متطرفا ، لنهاجم إذاعة أذان الصلاة من المساجد والزوايا ، لنتكلم عن الإرهاب الذى ينتشر فى ألمانيا والحجاب الذى ينتشر فى فرنسا لنخلط الأوراق . . نريد معارك تستدعى الأنظار إليها حتى نصرف الأنظار عن مأساة عالمنا الذى يحترق . . إنهم يقولون إن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم . . لندافع عن أنفسنا ولو بالهجوم على طواحين الهواء .

قال أحد الرفاق : هذه فكرة لامعة ، لقد كان دون كيشوت على حق .

القانون الدراكيولى

تلعب الحكومة المصرية هذه الأيام دور الكونت دراكيولا فى فيلم الرعب الذى تقدمه فى هذا الموسم وكل موسم ، وتأخذ أفلام دراكيولا المصرية شكل قوانين تخرج فى أعماق الليالى القمرية من خرائب الجبانات التاريخية ، وهى تهجم على الناس وتعوى ، الأمر الذى يجمد الدم فى عروق الناس ويوقف شعر رءوسهم ، ويثير الرعب فى قلوبهم .

من أمثلة هذه القوانين ما نشرته الصحف فى عناوينها الرئيسية منذ أربعة أيام عن هدم المبانى المنشأة منذ خمسين عاما لإعادة بنائها بشكل أوسع .

تأملت العنوان وتساءلت كيف تهدم المساكن لبنائها بشكل أوسع . . هل يهدم صاحب العمارة عمارته التى تتكون من عشرين شقة ليبنى بدلا منها عشر شقق أوسع أم ثلاثين شقة أضيق . . أدركت أن فى العنوان خطأ ما ، وإن كلمة أوسع جاءت بطريق السهو ، وصحة العبارة هى لبنائها بشكل أضيق .

ولقد كان الأصل القديم هو جواز هدم المبانى بعد مائة عام من إنشائها . أما الآن بعد هذا المشروع الفكاهى الدراكيولى فقد سمح بهدمها بعد خمسين سنة ، وثلاثة أرباع مساكن مصر المحروسة بنيت منذ خمسين سنة ، وهناك

مبان بنيت منذ أربعة آلاف سنة كالأهرام وأبى الهول . . فهل تهدم الحكومة الأهرام لبنائه بشكل أوسع .

ماذا يحدث للسكان ؟ أين يذهبون ؟ إن مشروع القانون يلزم المالك بأن يوفر للمستأجر مكانا مناسبا لأداء الخدمة بذات المنطقة وبأجرة لاتجاوز مثلى المكان المؤجر ، وهو كلام يدخل فى باب المستحيلات .

ومشروع القانون برمته غير قابل للمناقشة الجادة ، وهو يثير منازعات ومشاكل ليس المجتمع المصرى على استعداد لها .

ولا أحد يدرى على وجه التحقيق ما هى فلسفة هذا المشروع الجديد . . هل هو مشروع مع الساكن أم مع المالك أم ضدهما معا « وهذا هو الأرجح» .

إذا كان هناك ظلم وقع على ملاك العقارات القديمة فارفعوا هذا الظلم عنهم واسمحوا لهم برفع أسعار الشقق بنسبة مئوية مجزية كل عام ، أما أن نهدم ثلاثة أرباع القاهرة لنبنيها فى نفس المكان بشكل أوسع فهذا هو المضحك فى الموضوع وشر البلية ما يضحك .

انتخابات زمان

رسم توفيق الحكيم فى كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » صورة سريعة لما كان يحدث فى الانتخابات أيام زمان . .

كشف انخفاض منسوب النيل عن صندوق من صناديق الانتخابات فى إحدى الترع ، وسأل وكيل النيابة ـ وهو توفيق الحكيم ـ أحد ضباط الإدارة عن قصة هذا الصندوق فقال الضابط إنه رجل حر ويؤمن بالحرية وهو لا يحب الضغط على الفلاحين ، وإنما يترك لهم حرية إبداء رأيهم بالكامل ، فإذا انتهوا من ملء بطاقات الانتخابات وضعها فى صندوق وأمر بحمله وإلقائه فى الترعة ، وفى نفس الوقت الذى يكون فيه صندوق الآراء الحقيقية فى طريقه إلى مثواه فى الترعة ، يكون هناك صندوق آخر يحمل بطاقات مزيفة تضم النتيجة التى تريدها الحكومة . .

ويذهب هذا الصندوق المزور ويتم فرز بطاقاته فاذا بأصوات الناخبين تجمع على انتخاب مرشح الحكومة رغم أن أحدا لم يعطه صوته . .

هذه الصورة السريعة الواردة فى كتاب أدبى تكشف القناع عن تدخل الإدارة فى نتائج الانتخابات « زمان » ، وتكشف عن تزويرها لهذه النتائج .

وما أكثر الانتخابات التى قال الناخبون فيها رأيهم بصدق ، ثم فوجئوا عند فرز الأصوات أن العفاريت قد غيرت رأيهم إلى العكس تماما . والحقيقة أن تاريخ الانتخابات القديمة كان يمتلئ بكل ماهو عجيب وغريب ، ولم يكن تزوير الأصوات يقع كثيرا ، لأن هذا التزوير يعنى وعى الجمهور الناخب ووقوفه ضد رغبة الإدارة ، إنما كان التزوير الحقيقى يتم لإرادة الناخبين قبل الإدلاء بأصواتهم ، وكانت النقود والعصبيات والعائلات تلعب دورا أساسيا فى ذلك كانت هناك مثلا دوائر مغلقة على عائلات ثرية تتوارث مهنة تمثيل الشعب سنوات وراء سنوات . .

وإلى جوار الدوائر المغلقة كانت النقود تلعب دورا رئيسيا فى الانتخابات وكان الجنيه يقسم أحيانا إلى نصفين ، نصف يعطى للناخب قبل الإدلاء بصوته ، والنصف الثانى يأخذه بعد ظهور النتيجة ، وكانت صواوين العشاء والولائم وصوانى الشاى تقول رأيها فى الانتخاب قبل الناخبين ، وعلى حين كانت أغلبية الشعب المصرى من الفلاحين ، لم يكن يمثل الفلاحين فى لمجالس المنتخبة غير الإقطاعيين وملاك الأراضى الكبيرة ومجموعة من لعائلات التى تملك آلاف الأفدنة فى الريف ، وإن كانت صلتها بالريف قتصر على تسلم إيراد الأطيان والغلة . .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك رجال أفذاذ يمثلون الشعب حقا ، كانت هناك نسبة ترعى مصالح الشعب ، ولكن أغلبية ممثلى الشعب كانت تمثل لحكومة أو السرايا أو مصالح الإقطاع . .

راجـل خـدوم

بدأت معركة الانتخابات ، أو عما قليل تبدأ ، وتحتل المعركة أهمية قصوى عند المرشحين وأعوانهم ، أما موقف الناخبين فلا يزيد عن موقف العروسة الباردة المحايدة ، لا مانع لديها من الزواج ، ولكن أى الرجال يدفع أكثر . .

وليس المقصود بالدفع هنا الدفع المادى وحده ، صحيح أن النقود تلعب بالرءوس وتديرها ، ولكن هناك الوعود ، وربما فاقت الوعود النقود فى ضخامتها . .

وهذا الموقف المبدئى خطأ وخطر ، لأن اهتمام المرشحين بالانتخابات وعدم اهتمام الناخبين بها يؤديان عادة إلى اختيار من لا يصلح لتمثيل الأمة . . وهذا يشبه حمل قربة تخر على رءوس الناخبين . .

ومن المفاهيم التى تحتاج لتصحيح فى أذهان المرشحين والناخبين . مفهوم النيابة عن الأمة . .

إن النيابة عن الأمة مسئولية عامة ، ولا يجوز أن نعهد بالمسئولية العامة لمن يجيد حمل المسئولية الخاصة فقط ، والنائب بعد دخوله البرلمان لا يمثل نفسه . ولا يمثل دائرته ، ولا يمثل عائلته ، ولا يمثل أعوانه ، وإنما يمثل الأمة كلها .

إذا نطق ، وجب عليه أن يسكت لسانه الخاص ويتكلم بلسان الأمة ، وإذا فكر ، لحقه هم التفكير فى المشكلات العامة والمصلحة العامة . . وهناك فرق بين القدرة على التأثير فى الناس ، والقدرة على تمثيل الناس أو خدمة المصالح العليا لمجتمعهم .

ونتيجة لتخلف العالم الثالث ، وانتشار الأمية فيه ، ينتخب الناس عادة نموذجا يمكن تسميته بـ « راجل خدوم » . .

وهذا النائب الخدوم له اتصالات واسعة بجميع البشر ، المهمين وغير المهمين ، فهو يستطيع أن يصالح زوجة كانت تخاصم زوجها ويعيدها إليه فى نفس الوقت الذى ينقل فيه خفيرا من شونة إلى شونة ، فى نفس الوقت الذى يوظف فيه ابن الحاج فلان ، فى نفس الوقت الذى يحضر فيه عقد عمل لابن الحاج ترتان ، فى نفس الوقت الذى يزور فيه المقاهى ، ويستمع لمشاكل أصحابها مع الصحة والتراخيص ، ولابد من زيارة المساجد والكنائس والحاخامات (فيما بعد) ، وتوزيع الابتسامات عليها بالتساوى ، وهو مشغول بالمشاكل الفردية الخاصة لكل واحد على حدة ، وليست لديه رؤيا عامة لأى قضية عامة ، فإذا انتخب وصار نائبا وجاء وقت مناقشة قانون هام أو تشريع خطير ، أو موقف حرج ، بحثت عنه فى القاعة عبثا فلم تجده ، فإن وجدته كان نائما يحلم بأنه يأكل الفتة مع مجموعة من الأصدقاء . .

إن نموذج الرجل الخدوم قد يصلح لمنصب يتصل بخدمة الناس ، ولكنه بالقطع لا يصلح لتمثيل الأمة ، لأن العبرة فى النيابة عن الأمة هى مقدرة العقل على وزن أمور المصلحة وطرقها والاختيار بينها ، ووجود رؤيا شاملة للمشكلة والحل . .

أيهـا النـاخب اللئـيم

أيها الناخب الكريم ، نريد اليوم أن نحذرك من الكرم قليلا ، لأن مستقبل عيالك يتوقف على حرصك على صوتك ووضعه فى مكانه الصحيح . ولهذا ننصحك قليلا باللؤم ، لتكن اليوم ناخبا لئيما لعلك تنجو . .

يجب أن تدرك أن الانتخابات عند المرشحين معركة هدفها الفوز بمقعد . ولكن الانتخابات عند أمثالنا من الناخبين تعنى تسليم أمانة تمثيل الأمة . وليس تمثيل الأمة سهلا ولا لعبا ، وحين يستطيع أى طاغية أن يخرس مجلس الشعب أو يلغيه ، فهذا معناه أنه قد أخرس لسان الشعب بأكمله عندئذ يساق الشعب كله إلى مصرعه كبقرة سمينة . . والتاريخ شاهد على ما نقول . لقد عطل هتلر مجلس النواب الألمانى « البوندستاج » ، وبعد ذلك ساق ألمانيا كلها إلى المأساة ، وأحيانا يستبقى الدكتاتور مجلس النواب ويحيله إلى بوق يردد أفكاره ، وهنا أيضا يساق الشعب إلى الهلاك ، ويدفع الناخب فى جميع الحالات ثمن المأساة وحده .

ومجالس الشعب أو النواب من أخطر المؤسسات الشعبية لو أحسن اختيار أعضائها وجاءوا على مستوى المسئولية ، فإن مجلس الشعب هو الذى يراقب

الحكومة ويسائلها ، ومن حقه طرح الثقة بها وإسقاطها ، وهو الذى يسن القوانين والتشريعات التى تنظم حياة المجتمع . . وهذا معناه أن له دورا مزدوجا ، هناك دوره كرقابة على الحكومة ، وهناك دوره كمشرع للقوانين التى تتصل بحياة الشعب ، وأى فساد فى دوره يفسد الشعب والحكومة معا .

نريد أن تعطى صوتك اليوم لمن يستطيع النطق باسم مصالح الشعب ، لا مصالحه الشخصية ، ونريد أن ننتخب من نصفق له لا من يصفق للسلطة ونريد أن يكون من نختاره قادرا على الرقابة والتشريع . .

إن الرقابة تعنى الأمانة والإيمان ، والتشريع يستوجب الوعى والعلم . وعضو مجلس الشعب يجب أن يكون فى الأصل قادرا على المهمتين . .

إن مصر تقف اليوم فى مفترق الطرق ، وعليها أن تختار بين الطرق الأربعة التى وردت فى حواديت ألف ليلة . .

طريق السلامة ، وطريق الندامة ، وطريق الصدامة ، وسكة اللى يروح ما يرجعش . .

ونحن نريد أن ندقق كثيرا فى اختيار ممثلينا فى مجلس الشعب ، حتى نضمن أننا سنمضى فى طريق السلامة لا طريق الصدامة [الصدمات] أيها الناخب الكريم ، كن لئيما اليوم ولن تندم . .

قل ما تشاء من مجاملات للمرشحين ، لكن عندما تخلو بنفسك وتمسك الورقة والقلم لتكتب ، فتذكر أنك تختار من ستأتمنه على أهل بيتك ووطنك وليكن اختيارك على هذا الأساس .

عتنخبـوا مـين ؟

تتصاعد درجة حرارة المعركة الانتخابية ، ويشد معظم المرشحين أقواس الكذب ويرمون بسهامهم من الوعود الهائلة ، وتجرى المباراة بين بعض المرشحين حول هدف واحد هو الجنة الموعودة ، فهذا المرشح سيحل مشكلة عدم صعود المياه إلى الأدوار العليا ، وهذا المرشح سيحل مشكلة صعود المجارى إلى الأدوار السفلى ، وهذا سيحضر الذئب من ذيله ، وهذا سيعمل ما لم يعمله عنترة بن شداد ، ولا أحد يصدق من الناخبين ما تقوله دعاية المرشحين ، بل إن جزءا من المرشحين لا يصدق نفسه ، المشكلة كلها أن عليهم أن يعدوا الناس ولهذا يعدونهم ، ولكن الوعود جزء من لعبة الانتخابات ولابد من استخدام جميع حيل اللعبة لتوفير أكبر نسبة من الكسب .

بعد الوعود تجيء مسألة ثانية . . الخدمات . . ماهى أهمية هذا المرشح وما قدرته على الخدمة . . هل هو قادر على نقل فلان وتعيين علان وحجز مكان فى المستشفى لترتان ، هل هو خدوم أم انطوائى مثقف ، ومعظم الخدمات شخصية ، وهى تتم فى مكاتب الوزراء أو عند مديرى مكاتبهم ولابد من متابعة إمضاء الوزير وإلا نعس الورق ونام معه المرشح .

وتجىء بعد الخدمات التى ترجح مرشحا على مرشح مجاملاته فى الجنازات والمآتم والمعازى والأفراح . . ويحرص كثير من المرشحين على السير فى الجنازات طوال فترة المعركة الانتخابية ، فاذا انتهت المعركة قصروا نشاطهم الجنائزى على حضور المآتم وتصدر صواوين العزاء ، ويستحسن ارتداء كرافتة سوداء وحبذا لو دعك المرشح عينيه أو شم بصلة قوية لتبدو عيناه باكيتين قليلا ، ومن المستحسن أن يرسم على وجهه معالم الحزن للمصاب الجلل ، ولابد قبل انصرافه من الصيوان أن يقول لأحد مندوبيه . .

الراجل اللى مات ده يبقى حد يروح ينتخب باسمه . . ما حدش حيشيل اسمه من كشوف الانتخابات قبل سنين . .

ويمكن أن يطلق أحد مندوبى المرشح قبل الانصراف من الصيوان إشاعة مؤداها أن المرحوم كان حزينا وهو يموت لأنه كان يجب أن يعاون المرشح ويعطيه صوته ، وهذا ترغيب ، وهناك ترهيب يمكن أن يساق حين يقول مندوب المرشح إن المرحوم كان يعارض المرشح ، وهاهو قد مات ، وهذا جزاء المعارضة باختصار ، ولابد من حضور الأفراح أيضا ، ويستحسن مجاملة العريس والمعازيم ، سواء بالمواد السائلة أو المواد الصلبة ، وعلى المرشح أن يقوم بالسلام على آلاف الأشخاص كل يوم ، ولابد من هز أيديهم والابتسام فى وجوههم والهش والبش لهم . .

مهنة متعبة حقا مهنة المرشحين فى الدول النامية .

خطرت لى فكرة

منذ إنشاء مجلس الشعب المصرى ، وعلى اختلاف الأسماء التى حملها . لم نسمع أن عضوا واحدا فيه انتخب لتمثيل الحيوانات ، ولم نسمع أن عضوا فيه دافع عن القطط والكلاب والحمير والخيل والبغال ، وهذا ظلم من الإنسان للحيوان ، والظلم حرام فى جميع الشرائع والملل والنحل . أعرف أن الانتخابات تجرى بين البشر لانتخاب ممثلين عنهم ، ولكن أى دولة فى العالم لا تضم بشرا فحسب . إن الحيوان جزء من النظام الإنسانى فى أى مكان . والدور الذى لعبته الحمير والكلاب والقطط أعظم من أن ينكره أحد ، ونحن مدينون للحيوان بجزء كبير من تقدمنا ، لماذا لا يكون فى مجلس الشعب ممثل عن الحيوان ؟ أنا لا أمزح ولا أضحك وإنما أتكلم بجد أقرب إلى الحزن ، لا تقولوا لى إن فى مجلس الشعب أو مجالس النواب السابقة من ناقش مشكلة الحيوان والثروة الحيوانية ، أنا لا أتكلم عن هذا الموضوع ، إن مناقشة تسمين بقرة أو عجل بقصد ذبحها والتهامها مع صينية فتة ليس عملا إنسانيا لوجه الإنسانية ، إنما هو حرص على مصالح الإنسان وحدها . ولست أقصد ذلك بحديثى ، إنما أتحدث عن الحيوانات التى لا تؤكل ولا تشرب مثل الحمير والخيل والبغال ، والقطط والكلاب والعصافير . .

لقد نظرت حولى فلم أجد من يستحق شرف تمثيل هذه الخليقة الحيوانية البائسة غيرى ، وقد تحدثت مع أكثر من حمار ، وتبادلت الحوار . الحيوانات متفقة على أن صوتها لا يصل إلى البشر، وقد اقترح علىّ حمار عجوز أبيض من حمير السباخ أن أرشح نفسى عن الحمير وغيرهم من بنى الحيوان ، قال لى : ياأخ بهجت . . أنت تفكر مثلنا وتتحدث مثلنا وتصبر مثلنا وتشقى مثلنا فلماذا لا تكون ممثلا لنا ، لماذا لا تنطق باسمنا وتدافع عن ظهورنا المتسلخة .

قلت للحمار : يا أخى أنا أخشى أن أرشح نفسى عنكم فيخرج لى حمار من بينكم ويقول إنه أولى بكم منى لأننى بشر وهو حمار ، ويكسب منى المعركة فلا يصيبنى غير قلة القيمة . .

قال الحمار غاضبا : أنت تهيننا فسامحك الله ، نحن لا نخادع كالبشر وليست لنا تنهيقتان أو كلمتان أو وجهان ، كلمتنا واحدة وقد انتخبناك ممثلا عن بنى الحيوان لتكون صوتا من أصوات الرفق بالحيوان فى المجلس قلت له : دعنى أفكر طويلا ، فقد يسخر الناس من الفكرة !

قال الحمار : كل الأفكار النبيلة الراقية لم تلق غير السخرية والتهجم فى البداية ، ولكن عظمة الإنسان تقاس بمقاومته لتخلف البيئة . . رشح نفسك عنا ولا تتردد .

قلت له : انتهت الانتخابات بالإعادة ، لقد تأخرنا . .

قال الحمار : عرفت الآن سر تخلف الحمير ، لقد فكرنا بعد الهنا بسنة .

تأملات صابونة

وقع الناس فى الأرق والسهاد ، حين شح الصابون فى البلاد ، كما أصاب القشف وجوه العباد ، بسبب عدم الاستحمام فى الميعاد .

وقد تكلم فيلسوف الرغاوى ابن شداد ، فقال إن السبب هو التاجر ابن عماد ، وزوجتاه سعاد ووداد ، فقد اشتروا الصابون كله من الجمعية . وخبئوه فى بيتهم ساعة العصرية ، ومن هنا نشأت الأزمة ، وهى حكاية مفتعلة وبلا لزمة .

ولم يقنع كلام الفيلسوف أحدا ، وذهب فى الهواء بددا بددا . . .

وقد سئلت صابونة غسيل ، من النوع النحيل الطويل ، لماذا اختفت فجأة من السوق ، دون إعلان أو تنبيه أو بوق .

قالت الصابونة : لم آخذ إجازة من زمن ، حتى انهرى كبدى من المحن فلماذا كثرة الكلام والملام ، ولو طلعت أو نزلت فلست سوى صابونة فى حمام . فلما انتهت الصابونة من كلامها وقفت الصودا الكاوية ، وقالت لقد نبهتك فما ارعويت ، ونصحت لك فما وعيت ، على أنى سأغمس قلمى فى المداد . وأكتب بدمع الفؤاد ، عن تأملات صابونة لها أمجاد ، لقد تأخرت الشركة فى استيرادى من بلاد بره ، فسامحونى فهذه آخر مرة . .

ثم وقف المستحم ابن ليفة ، وقال كلمة شريفة وعفيفة . قال فيها لقد شح الصابون حتى تصورنا أن الجن اختطفته ، أو الأرض اقتطفته ، فما رأى الناس كربة كهذه الكربة . ولا قاسوا ماقاسوه من غربة ، ثم صرخ المستحم ابن ليفة، قائلا إن هذه ليست مسألة لطيفة ،لقد اتسخ الماعون ، وليس هناك صابون، فما العمل أيها السامعون ؟

فلما حزب الأمر ، وانقضى من الأيام عمر ، عقد رئيس مجلس إدارة الصابون اجتماعا جوار الدش ، واندفع الكلام من فمه كالرش .

قال : إن أعداءنا كثيرون ، والعوازل لنا كائدون ، ولكننا باذن الله عائدون، وعلى البطاقة موجودون ، ولكنْ لنا فى الأول شرط ، والذى أوله شرط آخره نور ، والنور سرور وحبور .

فلما سئل عن الشرط قال : لكل فرد على البطاقة صابونة ميرى ، فاذا أراد أخرى سياحية ، فعليه أن يحضر عرضحالا يوقعه اثنان من الموظفين يثبت فيه أنه لم يستحم منذ سنين ، أو أن عنده غسيلا لا يقل ارتفاعه بالسنتيمترات عن ستين ، ويكفى لتسجيل الارتفاع شيخ الحارة ، أو أى خبير ذى مهارة ، فاذا أثبت المواطن ذلك ، انعقدت لجنة فورية من الصابون. وأفادت بما يمكن أن يكون . .

فلما انتهى الاجتماع ، وقعت مشادة بين صابونتين ، هما الصابونة جيم حداشر ، والصابونة اللوكس ، ويقال إنها ضربتها بالبوكس ، ثم انصرف المجتمعون بشأن الصابون وهم ينشدون « عائدون عائدون » .

هيروغليفى

يمكن القول إن الجهاز الإدارى المصرى بنى بالطريقة الهيروغليفية . ونحن نفخر عادة بأن عمر جهاز الإدارة فى مصر يقترب من خمسة آلاف سنة ، ومن الطبيعى أن يفخر المرء بالتاريخ والخبرة . .

وقد حتم نشوء الحياة حول النهر إنشاء جهاز إدارى مركزى للتحكم فى توزيع مياه النهر ، وبهذا الجهاز الإدارى ضمن الحاكم استقرار مصر وضمن التحكم فيها ، وأدى إنشاء هذا الجهاز الإدارى إلى إمكانية نشوء مانعرفه باسم الحضارة المصرية القديمة .

وفى الوقت الذى تم فيه بناء الجهاز الإدارى ، كان الرسم الهندسى لتصميات الهرم الأكبر قد انتهى ، ولولا كفاءة الجهاز الإدارى وإحكامه لما أمكن تحقيق معجزة بناء الأهرام ، صحيح أن هذا الجهاز الإدارى كان منضبطا لدرجة الحزم والقسوة ، ولكن هذا الانضباط كان مسئولا بشكل أساسى عن تشغيل هذا العدد الهائل فى بناء الأهرام وإطعامهم وتوجيههم لخدمة الهدف المطلوب . . وأى إنسان يتصور أن بناء الهرم تم بطريقة التجربة والخطأ أو بغير نظام متقدم هو إنسان ساذج . .

نريد أن نقول إن حضارة مصر القديمة لم تكن أسلوبا متقدما فى العلوم والفنون والآداب والعمارة والطب والهندسة ، إنما كانت فى الأساس أسلوبا متقدما جدا فى الإدارة . .

ولقد كان هناك عبقرى مصرى فى الإدارة . . نجهل اسمه ونثق فى وجوده . وكان هذا العبقرى هو الحلقة التى تصل الأحلام بالتنفيذ ، وحين تنكسر هذه الحلقة نحلم ولا ننفذ ، أو نحلم وننفذ شيئا آخر لا علاقة له بحلمنا الأصلى وكان النظام المهيمن على الجهاز الإدارى هو تحقيق هدف ما . . أى إن الإدارة كانت إدارة أهداف ، وكان تحقيق هذه الأهداف يتم بالإمكانيات الموجودة الممكنة ، وبخامات البيئة المحلية ، واعتبرت أرض مصر والدول المجاورة بيئة محلية . .

وكان من مميزات القائد الإدارى المصرى القديم المبادرة والقدرة على الإبداع والتفكير غير المسبوق ، وكانت مميزات الأتباع الإداريين القدرة على التنفيذ وإدراك أهمية الوقت المحدد للتنفيذ . وتركب لدى الموظف الإدارى فكرة احترام الرؤساء وتوقيرهم إلى حد التغاضى عن أصلهم البسيط ، كما تركب لدى التابعين الإداريين انقياد كامل واعتماد مطلق على الرئيس الإدارى .

وعلى حين نمت مهارات القادة فى الإبداع والحلول غير التقليدية ، نمت مهارات التابعين فى التنفيذ والسباق مع الزمن . .

وكان شرط القيادة الإدارية هو الإبداع والتفكير ، وتمت فى هذا الزمان البعيد أقصى استفادة من الإنسان والتراب والوقت ، وكان هذا منذ خمسة آلاف سنه . .

وقد مرت رياح كثيرة على الهرم فى خمسة آلاف سنة . وتحول الجهاز الإدارى المصرى إلى جهاز لا إرادى . . وضاع الماضى فى بؤس الحاضر .

دكتـور جحـا

حين كبر جحا وأدركته الشيخوخة قرر أن يشتغل حكيما ، وهكذا فتح مؤسسة استشارية للعلاج ، وكتب على اللافتة « دكتور جحا .. خريج معاهد الحياة ومدارسها » ، وبدأ يزاول نشاطه فى علاج المشاكل . .

وذات يوم ذهب إليه رجل تبدو عليه التعاسة ، قال الرجل : يا جحا . . أنا مرهق جدا وأريد أن تعالج مشكلتى . . جلس جحا بوقار وسأل : ماهى مشكلتك قال الرجل : أعيش مع زوجتى وأمى وثمانية أولاد وحمار فى غرفة واحدة ، وقد ضقت ذرعاً بنهيق الحمار وصراخ العيال والمعارك الحامية بين أمى وزوجتى . . ماذا أفعل ؟

فكر جحا طويلا ثم قال : اذهب واشتر كلبا وضعه معكم فى الغرفة . . ذهب الرجل وغاب أسبوعا ثم عاد . . قال لجحا : يا جحا . . لقد زادت مشاكلى بهذا الكلب الجديد ، إنه ينبح ، والحمار ينهق ، والأولاد يتشاجرون . . ماذا أفعل ، فكر جحا طويلا ثم قال : اذهب إلى السوق واشتر خمس دجاجات وضعها معكم فى الغرفة ، وتعال لزيارتى بعد أسبوع . . فعل الرجل ما طلبه جحا وعاد لزيارته بعد أسبوع ، سأل جحا كيف الحال ؟ قال

الرجل . أصبحت الحياة لا تطاق . . إن الكلب ينبح ، والحمار ينهق . والأولاد يتصايحون ، والدجاج يقفز فى الغرفة . . ماذا أفعل .

فكر جحا طويلا ثم قال للرجل : اذهب إلى السوق واشتر بغلا لطيفا وضعه معكم فى الغرفة ، ثم تعال لزيارتى بعد أسبوع . . ذهب الرجل وغاب شهرا كاملا . . وحين جاء لزيارة جحا كان يجر قدميه من التعب ، وسأله جحا : كيف حالك ؟ قال الرجل : الحياة لا تطاق يا جحا ، سأله جحا . لماذا ؟ قال الرجل أسكن مع زوجتى وأمى وثمانية أولاد وكلب وخمس دجاجات وبغل فى غرفة واحدة . . ماذا أفعل يا جحا ؟

قال جحا : اذهب إلى السوق وبع البغل ، وتعال لزيارتى . .

فعل الرجل ما طلبه جحا وعاد . . سأله جحا كيف الحال ؟ قال : مازال الحال صعبا يا جحا . . قال جحا : اذهب إلى السوق وبع الفراخ وتعال بعد أسبوع . . فعل الرجل ما طلبه جحا وعاد لزيارته . . فلما سأله جحا عن حالته وهل تحسنت ببيع الدجاج قال الرجل إنها تحسنت ، ولكنه مازال يحس بالتعب ، وهنا قال جحا افتح الباب وأطلق سراح الكلب وتعال بعد أسبوع لتحدثنى عن حالك .

بعد أسبوع جاء الرجل سعيدا مستبشرا فسأله جحا كيف حالك ؟ قال الرجل : الحمد لله يا جحا . . لقد تحسنت الحال كثيرا . . وهذا بفضل علاجك الحكيم . . اشكرك يا جحا . . قال جحا : العفو .

من فينا الصعيدى ؟

من بين الأمنيات التى لم تتحقق فى حياتى أننى لست صعيديا ، فقد ولدت فى القاهرة من أبوين من الدلتا ، وقد استكملت هذا النقص فى حياتى بتبنى أخلاق الصعايدة ، وقد درست الأدب الشعبى للصعيد وزرت الصعيد مرات كثيرة ، وكان يستهوينى دائما شكل الرجال المتجهم ببنادقهم وهم يتسللون إلى القصب كأنهم يدخلون مملكة سحرية ، وقد حاولت الزواج من صعيدية ولكننى لم أستطع أن أتجاوز بنى سويف، وعلى قدر علمى فإن بنى سويف تعتبر من الصعيد الأوروبى ، وكنت أحلم بالصعيد الصعيدى . حيث يترفع الناس على معرفة اختراع الراديو والتليفزيون ويعيشون فى أحضان الجبل والشمس .

وفى الصعيد تقاليد رائعة صار معظمها اليوم ملكا للفولكلور وعلماء الاجتماع ، من هذه التقاليد أن المرأة تتبع الرجل ولا ترفع صوتها أمامه ولا تأكل معه ولا تناديه باسمه ولا تخرج من بيتها إلا إذا قام زلزال وبدأ البيت فى السقوط وسقط نصفه فعلا ، وسمح لها زوجها بالخروج . انتهت هذه الأيام الجميلة الطيبة التى كانت السيادة فيها للرجل ، وكانت المرأة امرأة حقيقية ، وكان الرجل رجلا حقيقيا . . .

المهم أننى استعضت عن هذا كله بصديق صعيدى يقسم أنه ولد فى الصعيد ، وحين أدخل بيته لا أخرج علبة سجائرى خشية أن يغضب ، ولكنه لا يغضب ، والمفروض على الصعيدى الحقيقى إذا دخل بيته أحد أن يعتبره ضيفا عليه طوال فترة بقائه مهما امتدت ، فإذا جاء موعد العشاء أو الغداء وجب أن يدعوه إلى الطعام ، ويحلف عليه أيمانا غليظة أن يأكل ، ويهدده إذا لم يأكل ، فربما كان الضيف يحس بالخجل مثلا رغم أنه جائع . . ولابد بعد العشاء من تقديم الشاى الأسود فى أكواب صغيرة ، ولابد من تقديم الدخان والفاكهة ، هذه هى تقاليد البيت الصعيدى وهذه هى تقاليدنا . .

أجلس عند صديقى بالساعات ثم اكتشف أن ريقى قد جف وأتذكر أننى أمضيت ثلاث ساعات دون فنجان من القهوة أو كوب من الشاى . . وانتظر أن يتذكر ، ولكنه مستمر فى نسيانه أو تناسيه ، عندئذ أحدثه عن تقاليد الصعيد فى الإكرام والتضحية ، ويستمع ببراءة كاننى أحدثه عن شخص آخر فاذا طفح الكيل وبلغ السيل الزبى ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، إذا وقع هذا كله طلبنا القهوة بألسنتنا ، ويمضى إلى المطبخ متثاقلا وهو يبتسم بإحـراج فإذا عاد بالقهوة حدثنا عن الصعيد وذكر ما يوحى بانتسابه إليه . عندئذ أحتج وأقسم له أنه مولود فى الصعيد ، يحمل الجنسية الصعيدية ولكنه لا يحمل القومية الصعيدية ، فاذا سألنى من الذى يحمل هذه القومية إن لم يحملها هو ؟

قلت له : أنا الصعيدى الحقيقى .

وقد اختلفنا ، وإذن نحتكم إلى القراء .

خطاب من صعيدى

وصلنى خطاب من صعيدى بعد نشر كلمتى « من فينا الصعيدى » وسوف أنشر الخطاب لخفة دمه الشديدة وعملا بحرية النشر . . يقول الأستاذ سلامة دميان « الأستاذ الفاضل أحمد بهجت ، قرأت مقالكم فى صندوق الدنيا وأردت ألا أهتم بالموضوع ، بعد قراءة المقال وجدت الدم يفور فى عروقى. أنا من مواليد بنى سويف ، ولكن أسماء الأجداد مدونة فى أبنوب الحمام ، وهذا كاف لكى أحمل بندقيتى وأحضر إلى مكتبكم ونصفى الموضوع بلا زعل ولا حساسية ، وإنما ننهيه بالطريقة العملية . .

هل تتصور أن صديقك الصعيدى هفية لكى ينخدع بكلام واحد من أبناء الدلتا ، أى فلاح ، هل تعتقد أن من يريد شرب فنجان من القهوة أو الغداء والعشاء أو الثلاثة معا ، فما عليه إلا أن يحدث الصعيدى عن كرم الصعايدة فيقع الصعيدى ضحية لهذه المؤامرة ويقدم القهوة والعشاء ، لقد ذهب هذا الزمن وصار الصعايدة على قدر من الوعى يجنبهم الوقوع فى المصائد .

أما إكرام الصعايدة لبعضهم البعض فقائم لمعرفتهم أن من يكرمونه سيقف بجوارهم يوما ما ، عند الأخذ بالثأر مثلا ، فهل ستقف بجواره عندما يأخذ بالثأر ، راجع من فضلك توصيات وقرارات مؤتمر جنا [أى قنا] المنعقد سنة

١٩٢٥ ، لقد نبهت توصيات هذا المؤتمر على الصعايدة أن يحذروا الوقوع ضحية للكرم، كما نبهت عليهم ألا يشتروا الترام أو أى وسيلة من وسائل النقل العام لأنها فى الغالب تعمل فترة قصيرة ثم تتعطل . كما حذرت من يمر فى الميادين أن يشترى أى تمثال ضخم من تماثيل الميادين لصعوبة نقله إلى الصعيد . .

وهناك سبب آخر لصديقك الصعيدى لكى لا يقدم القهوة لسيادتك . إن كيلو البن أصبح يباع بمبلغ ٣٦٠ قرشا ، أى أصبح يشترى بثلاثة جنيهات وستمائة مليم ، وربما كانت هذه نسبة لا بأس بها من مرتب صديقك . وقد زاد كيلو البن بنسبة ٤٠٠٪ ولم يزد مرتب أى إنسان أكثر من نسبة ١٥٪ . فكيف تريد منه أن يعشيك أو يغديك ، هذا إحراج فربما لم يكن معه نقود . هل تريد منه أن يسرق أو يعمل مشروعا تجاريا أو يبنى عمارة وينفق دخلها عليك ، قطعا أنفق هذا الصعيدى كل ما أحضره من الصعيد لكى يعيش فى أيامنا الصعبة .

وهناك سبب آخر لتصرفات صديقك الصعيدى ، لقد صار الصعايدة يتصرفون مثل أولاد الدلتا حسب المثل القائل « من عاشر القوم أربعين يوم صار منهم » ، لقد قررت يا سيدى عقد مؤتمر لأبناء الصعيد ولن أدعو إليه أحدا من أبناء الدلتا وأعرف كيف أميز بينهم حتى لا يندس فيهم واحد من غير الصعايدة . . الخلاصة أنه لم يعد هناك الكرم الذى كنت تتوقعه من صديقك الصعيدى للأسباب التالية [١] وعى الصعايدة [٢] مؤتمر جنا سنة ١٩٢٥ [٣] الأسعار الخيالية للسلع التى تقدم للضيف [٤] التقدم الثقافى عند الصعايدة . . [٥] احتكاك الصعايدة بأبناء الوجه البحرى . .

هذا هو الخطاب . . بصراحة . . لقد اقتنعت . .

الأرز السـياحى

لاحدود لقدرة المصريين على استخراج الفكاهة الراقية من قلب أعظم المشاكل العابسة ، تماما مثلما يستخرج عنبر الحوت من قلب أحشائه المريضة ولست أذكر متى سمعت تعبير الأرز السياحى أول مرة ، لا أعرف هل قرأته أو سمعته ، كل ما أعرفه أن موجة من السرور الباطنى زحفت على صخور الكآبة داخلى وغسلتها غسلا فاذا بكآبتى تنفجر ضاحكة . .

ماهو الأرز السياحى ؟ وما هى علاقته بالسياحة ؟ ومن هو العبقرى الذى أطلق عليه هذا الاسم الجميل المعبر ؟

إن الأرز نبات يخرج من باطن الأرض كسائر النباتات ، مثل القمح . والعدس ، فكيف يكون العدس أصفر أو بجبة ، ويكون الفول ضاربا إلى اللون الأحمر البنى ، ويكون الأرز سياحيا ؟ إن الفكاهة تولد هنا من فم الدهشة الفاغر . .

لقد سكتت جميع دوائر المعارف عن سر تسمية الأرز السياحى ، وهذا دليل على أن التسمية جديدة ، هل يكون والد الأرز هو الذى أطلق عليه التسمية ؟ هل تكون والدته هى التى أسمته ؟ لقد مات والد الأرز ووالدته من زمان بعيد فمن هو صاحب التسمية ؟

هل هو موظف فى الحكومة آلت إليه الوصاية على الأرز فأطلق عليه هذه التسمية ؟ إن الغموض يتكاثف على الباحث ، ولكننا لن نيأس فلا يأس مع الأرز ، ولا أرز مع اليأس . المعروف أن الأرز السياحى هو الشقيق الغنى لأرز التسعيرة ، ولقد كان يمكن تسميته بالأرز درجة أولى ، أو الأرز الغالى . أو الأرز الحر ، ولكن هذه التسميات كلها تتضمن إهانة لأرز التسعيرة ، أو تتضمن انتقاصا له وإهدارا لقدره ، أما تسميته بالأرز السياحى فتراعى جميع الاعتبارات الإنسانية . .

والسياحة حظوظ وأقدار ، إن أرز التسعيرة لا يسافر خارج المجمعات الاستهلاكية ، أما الأرز السياحى فالمجال أمامه فسيح للسفر والترحال والسياحة ، وشوال الأرز السياحى أبيض وأنيق ، أما شوال الأرز الثانى فلونه رصاصى ، ويبدو عليه إجهاد المسغبة ، فهل ولد الأرزان من أب واحد . ولكن والدة أرز التموين كانت من عائلة متوسطة فقيرة ، أما والدة الأرز السياحى فكانت أجنبية وغنية ، فلما انتقلت من الدنيا تركت لابنها ثروة طائلة بددها الابن على أناقته وأسفاره حتى طبقت شهرته الآفاق ، وذاعت عنه التسمية الجديدة . .

إن الأسئلة تزداد ، والغموض يتكاثف ، وليس أمامنا من حل سوى سؤال طبقين من الأرز ، طبخت طبقا من أرز التسعيرة ، وطبقا من الأرز السياحى وسألتهما ـ عن طريق معدتى ـ عن الفرق بينهما فلم أجد فارقا يذكر ، على العكس كان أرز التسعيرة متواضعا ، عليه سمة الزاهدين ، أما الأرز السياحى فكان منفوخا ، شأن الأغنياء ، فنفخنى . .

سألته عن سر تسميته فرطن رطانة أجنبية لم أفهم منها شيئا . .

لم أعرف جواب سؤالى ، وعرفت أن الدنيا حظوظ . .

فــزورة

يقول الشاعر العربى الساخر :

ألقـاه فى اليـم مكتـوفا وقـال له

إيـاك إيـاك أن تبتــل بالــمــاء

سوف تسأل نفسك كيف قيده وألقاه فى البحر ثم أمره ألا يبتل . . هذه هى عقدة الملهاة الموجعة .

هذا البيت الشعرى كتبه الشاعر الألمعى عن قانون شركات توظيف الأموال وهذا البيت هو شعار هذا القانون .

قد يعترض هنا معترض فيقول : إن الشاعر كتب هذا البيت منذ سنوات طويلة قبل أن تظهر فى الأفق بوادر رائحة شركات توظيف الأموال أو قانونها . ثم إن هذه الشركات ظهرت واستمرت عشر سنوات تحت سمع الحكومة وبصرها ، وعناقها وقبلاتها ، كيف يكتب الشاعر شعرا عن حدث لم يقع بعد .

ونقول ردا على ذلك إن هذا هو جوهر الشعر ، وهذه هى عبقرية

الشاعر . لقد رأى الشاعر العجب قبل أن يحدث وسجله فى بيت من الشعر ثم جاء القانون وقال « طفى النور » وبدأت الغارة ، وظهر الدكتور فج النور على مسرح الأحداث كالشبح العنيد وهو يبتسم ابتسامة نصفها تكشيرة تهديد ونصفها الثانى وعيد ، وبدأت التجريدة على الشركات فضربت بمقامع من حديد ، واختلطت أوراق التوفيق والتجديد والتبديد ، وعومل رجال أعمال معاملة حرامى الحلة ، وافترضت الحكومة أن الكسب وارد والخسارة ممنوعة . خلافا لأعراف السوق التجارية .

وعهد إلى هيئة سوق المال ، وهى قطاع عام أن تنظم وتدير وتتدخل . . وتزهق أنفاس القطاع الخاص من خلال قانون غامض مهلهل كل سطر فيه يخفى وراءه شبح النيابة والسجن ، ووسط نظام يحرم بيع الأصول ويحرم تلقى الأموال ويوقف النشاط تماما ، ويلزم برد الأموال فى موعد تعجيزى أقصاه ٩/ ٦/ ١٩٩٠ وسط هذا كله ضاع الأمل فى أموال المودعين . إلا إذا بيعت الأصول فى المزاد بربع ثمنها .

كيف نسمح بهذا كله ، وهل هذا بناء للاقتصاد القومى ؟

إن القانون يمنح البيروقراطية حق تكتيف هذه الشركات وإلقائها فى البحر مع تحذير صارم ألا تبتل بالماء .

حدوتة رمزية

قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف ـ حدثنى عن الاستبداد وطبائعه .

قال بيدبا الفيلسوف : للاستبداد طبيعة لا يغيرها المستبد مهما كانت الظروف والأحوال . . قد يتراجع عنها كجزء من خطة موضوعة ، أو يتظاهر بغيرها دهاء وخداعا . . هل يعرف مولاى حدوتة الضفدع والعقرب . . ليستمع مولاى إلى القصة إذن .

كان الضفدع يقفز فى العشب المبلل حين وجد عقربا تقف جوار النهر . . قفز الضفدع قفزة أبعدته عن مجال الإبرة السامة التى تلدغ بها العقرب . . قالت العقرب : صباح الخير أيها الضفدع النشيط . . لماذا تقفز هكذا بعيدا عنى كأنك لا تريد أن نتعارف : قال الضفدع باقتضاب وخوف : إننى على عجل فمعذرة .

قالت العقرب بنعومة : فى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة إلى أين أنت ذاهب يا حبيبى .

قال الضفدع : كنت فى طريقى لأعبر النهر .

قالت العقرب : ما أجمل ذلك . . إننى أقف أمام النهر منذ ساعة وأريد

أن أعبره أنا الأخرى ، ولكننى لم أجد وسيلة لعبوره . . لقد جئت فى الوقت المناسب فمرحباً بك .

قال الضفدع : تريدين عبور النهر معى . . كيف يكون ذلك .

قالت العقرب : دعنى أركب فوق ظهرك وتسبح أنت برشاقة حتى نصل إلى الشاطئ الآخر . قال الضفدع : وهو يضحك ويتراجع مرتعبا : أنا لا أضمن ألا تلدغينى ونحن نعبر النهر .

قالت العقرب : أيها الضفدع الحكيم . . تصور المشهد . . أنا أركب فوق ظهرك وأنت تعبر النهر وتخاف أن الدغك . . كيف ألدغك وأنت تحملنى . . إنك ستموت . . ستهوى فى قاع النهر وسأغرق معك أنا الأخرى وأموت . . هل تظن أننى أضحى بحياتى لكى أقتلك . . إن حياتك هى حياتى ياحياتى .

فكر الضفدع قليلا وقال : هذا منطق صحيح . . إننى مغفل حقا . . سوف أنقلك بكل سرور ، وحمل الضفدع العقرب وسبح بها حتى إذا كان فى وسط النهر لدغته العقرب فجأة . . قال الضفدع وهو يحس بالسم يسرى فى جسده لماذا إنك ستموتين .

قالت العقرب : أعرف ذلك . . لقد حاولت جاهدة ألا أفعل ولكننى لم أستطع . . هل نسيت أننى عقرب .

الداهيـة والنظـام

كان معاوية بن أبى سفيان داهية من دواهى العرب ، أو كان بلغة عصرنا عبقرية سياسية انتهازية من طراز يستلفت النظر . كان له فهمه الخاص للإسلام ، وكان هذا الفهم محكوما بطموحه هو ، وأطماعه هو . . وكانت لديه المقدرة على تحويل فهمه هذا (وهو اجتهاد بحت) إلى سياسة مطبقة ومنفذة ومرعية .

كان الإسلام فى الفترة التى سبقت معاوية ـ حكما ومالا وتعبدا ـ كان نظاما سياسيا ونظاما اقتصاديا وأسلوبا للحياة وشكلا للعبادة ، كان دينا ودولة . .

وجاء معاوية وقال (دون أن يتكلم) مقولته الشهيرة ـ الإسلام دين وأنا الدولة . . ليتعبد الناس بمطلق الحرية ، وليتركوا لى مطلق الحرية فى الحكم والمال . . .

وهكذا تحول حكم الشورى الذى كان سائدا إلى حكم فردى مطلق . ومضى فقهاء معاوية يزينون للناس فكرة أن الشورى اختيارية وليست ملزمة للحاكم . .

أما المال فقد وقعت له عدة تحولات بعد أن كان مال الله أو مال المسلمين

انتقل إلى حيازة أمير المؤمنين أو أمير الدهاة ، وخضع توزيعه لهوى الأمير لا لقواعد العدالة . .

وهكذا أحدث معاوية فى الإسلام فتقا لم يرتق حتى اليوم ، أو شرخا لم يعالج إلى الآن ، وبدت الصورة الجديدة للموقف هى التالية : اختفى أمير المؤمنين من الصورة وحل مكانه أمير الدهاة . . يجلس أمير الدهاة على كرسى العرش وعلى يمينه خزينة مغلقة فيها عرق المسلمين وقد تحول إلى ذهب . مفتاح الخزينة فى جيبه ، وعلى يسار الأمير يقف الجلاد وقد أشهر سيفه فى يده وراح يظهر مهارته فى اللعب به ، وأمام الناس حرية الاختيار بين أمرين . . إما التوجه إلى خزينة الذهب أو حد السيف . . كان الناس أحرارا فى الاختيار وعلى العاقل أن يتعظ بغيره . .

إذا ترك الناس لأمير الدهاة قضية الحكم وقضية المال ، يكون الحكم كما يشاء وراثة لا اختيارا وملكا لا خلافة ، إذا قبل الناس ذلك فتح أمير الدهاة خزائنه وأخرج الذهب ورش على الموافقين رشة ، فإذا رفض الناس تحرك السيف وحصد من الرءوس دستة . .

وقد مات معاوية ولم يزل نظامه حيا يرزق فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وكان المفروض أن يكون ميتا قد شبع من الموت وشيعته الرحمات .

معاوية والحصان

يرجع لمعاوية بن ابى سفيان فضل أو إثم تحويل الخلافة الرشيدة إلى ملك عضود . . قلنا فضل أو إثم معاوية ، والفضل إذا كنت من أنصاره . والإثم إذا كنت من خصومه . . وللعلم لايزال لمعاوية أنصار كثيرون ، وهم أقوياء وقادرون على الإيذاء ، فإذا كنت خصمه فلا تصرح واستخدم التقية .

وقف الجلاد فى مجلس معاوية فقال مشيرا إلى معاوية ، أمير المؤمنين هذا . ثم قال وهو يشير إلى يزيد : فإن هلك فهذا ، ثم وهو يشير إلى سيفه ، فمن أبى فهذا .

كان معاوية ديمقراطيا من طراز فريد ، فهو يؤمن بمنطق السيف وبلاغته وقدرته على الحسم الديمقراطى . . إن المرء حين يتأمل المشهد يحس على الفور بعبقرية معاوية كشاعر يقول أخطر المعانى بأبسط الكلمات . . لقد كان معاوية يفكر بالصور . . أمير المؤمنين هذا ، فإن هلك فهذا ، فمن رفض فهذا . . لاحظ تكرار كلمة هذا بينما تتغير الصورة فى كل مرة . . لاحظ الإيجاز الشعرى المدهش ، ولاحظ أنه يهدد بالقتل ، ولكنه يبتسم ويجعل القتل نتيجة منطقية يقود إليها الحوار الصامت الذى أقامه من طرف واحد . . أى عبقرية .

لقد فصل معاوية بين المسلمين والحكم ، وفصل بينهم وبين المال . وجعل الحكم وراثيا فى أسرته رغم أن الإسلام أمر بالاختيار والشورى ، وجعل المال فى أكياس صار يوزعها على الموالين ويمنعها عن المعارضين ، وبهذا الأسلوب السياسى والاقتصادى نجح معاوية فى تعطيل ما قدمه الإسلام للحياة . . من الحرية والشورى .

إن معاوية من الشخصيات التى أطلق عليها اسم الداهية ، لقد وضع الرجل نظاما نموذجيا للاستبداد ، وأسدل على هذا النظام عباءة الدين . . واستخدم الدين كمطية ، ولم يجعل من نفسه مطية له .

لقد كان معاوية هو أول من وضع العربة أمام الحصان . . من يومها ونحن فى هذا الموقف النكد .

ميــول نـازيـة !

أنا من هواة جمع التحف بوجه عام . .

التحف العاجية والخشبية والبرونزية ، وأيضا التحف البشرية . . !!

وقد اشتريت من التحف الفنية ماسمحت به الأحوال المادية ، كما أن لدى مجموعة من التحف البشرية .

من هذه التحف صديق نازى . . هو مصرى الجنسية ريفى الأصل ورغم ذلك فإن له ميولا نازية واضحة . .

وهذا الصديق هو اللمسة الفكاهية فى مناقشاتنا وحوارنا إذا احتدم وطيس المناقشة والحوار . .

ولقد ظهرت النازية فى أوربا فى ثلاثينيات هذا القرن ، وبلغت أوجها مع بداية الرايخ الثالث ، وقادت الدنيا إلى حكم هتلر والحرب العالمية الثانية .

وقد ماتت النازية كدولة بتحطم الرايخ الثالث وانتحار هتلر فى مخبئه وقتل موسولينى وتعليقه كالذبيحة من قدميه . .

رغم موت النازية كدولة ، إلا أنها مازالت تعيش كفكرة ، وهذا الصديق

النازى يمتلئ بأفكار النازية ، وأهم أفكارها كراهية الحرية ، وكراهية الكلام عنها . . إن الحرية عندهم سجينة فى الحزب الاشتراكى ، بتحديد أدق هى سجينة فى عقل رئيس الحزب (هتلر فى ألمانيا) ، وطبقا لهذه الفكرة يتمتع الرئيس بالحرية وحده ، وعلى بقية الناس أن يتبعوا التوجيهات السامية التى تصدر من أعلى . .

والنازية هى « البنت » غير الشرعية التى أنجبها الطغيان من علاقته بأحلام السيطرة ، وتتفق النازية والطغيان على أمر واحد كشفت عنه الآية القرآنية الحكيمة التى تحدثنا عن فرعون . . قال فرعون « وما أريكم إلا ما أرى» هذا جوهر الطغيان وجوهر النازية ، « وما أهديكم إلا سبيل الرشاد » هذه المقولة تعنى أن الحاكم دائما على حق ، وتعنى أن رأيه هو الصواب ، حتى لو كان هذا الرأى سيقود الناس إلى الغرق فى البحر . .

لا يهم الناس هنا . . المهم هو الانضباط ، هو النظام ، هو الشكل الخارجى ، أما الشعب ، أما رغباته وأحلامه فيجب أن توظف فى خدمة النظام . .

كنا نتحدث فى ضرورة الحرية حين قال الصديق ذو الميول النازية ضجرا . لماذا تريدون الحرية ؟

ماذا فعلتم لتستحقوها ، وأى شىء ستفعلون بها ؟ قال أحدنا ساخرا . سوف نسلى أنفسنا بها ونحن نتمشى على شاطئ النيل . . قال الصديق النازى :

اشتروا كيسا من اللب أو السودانى وتسلوا به ودعوا الحرية .

الأمثال العامية

يقول كتاب الأمثال العامية للعلامة المحقق أحمد تيمور باشا ، وهو الكتاب الذى نشره مركز الأهرام للترجمة والنشر . . يقول فى حرف الألف «آخر خدمة الغز علقة » ، والغز بضم « الغين » هم المماليك أو الترك ومن فى حكمهم من الطغاة .

و « العلقة » معروفة وهى كلمة عامية تفيد الضرب المبرح ، وقد نشأ المثل العامى ـ فيما يبدو ـ أيام سطوة المماليك أو الترك . . كانوا يستخدمون الناس فى أعمالهم ، وكان الناس يخدمونهم على أساس أنهم أغنياء وشرفاء وسوف يدفعون ما عليهم .

وفى الناس من كان يظن أنهم سيبذلون له العطاء طبقا للحديث النبوى القائل .

أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه .

أيضا قام فى الناس من يظن أنهم يعرفون الله ويتبعون رسوله . ويؤمنون بأن من يطيع الرسول فقد أطاع الله .

كان هذا تصور الناس أو توقعهم . . ثم جاءت الأحداث الظالمة القاسية فأثبتت للناس عكس ما كانوا يتصورونه .

كان المملوك من هؤلاء يستخدم المصريين عنده ، ويكلفهم بأشق الأعمال . ويمنيهم بأحلى الأمنيات ، ثم يجيء وقت الحساب فيذهب المصرى إلى المملوك سعيدا ينتظر أجره . . عندئذ كان المملوك يهجم عليه وينهال عليه ضربا ، وفى المرة الأولى التى وقع فيها هذا تصور المصرى أن المملوك يمزح معه ويداعبه ، فلما اشتد الضرب أدرك المصرى أن الأمر قد خرج من دائرة المزاح إلى دائرة الجد .

فلما حمى وطيس الضرب صار هم المصرى أن ينفد بجلده لا أن يطالب بحقوقه .

وتكرر هذا المشهد فى التاريخ المصرى علقة بعد علقة ، حتى نطق المصريون بالحكمة ، وسجل الضمير الشعبى هذا المثل « آخر خدمة الغز علقة » . . وأحيانا يقال المثل على النحو التالى « آخر خدمة الغز سكتر » وهى كلمة تعنى الطرد . . ويضرب المثل لقبح المكافأة على العمل الحسن وانظر قولهم « آخر المعروف ينضرب بالكفوف » .

تطــور الاســتعمــار

تطور كل شيء فى الدنيا .

كان الإنسان يستخدم الحمار فى تنقلاته فأصبح يستخدم الطائرة . . كان يضيء بيته بشعلة من النار ، فأصبح يستخدم الكهرباء . . كانت الحروب القديمة تجرى بين السيوف والرماح فأصبحت الحروب تدار بالكمبيوتر وتستخدم الصواريخ والأشعة الكونية . .

باختصار . . تطور الإنسان وتطورت أدواته وتطورت الحياة وتطور معها الخير والشر . . وخضع الاستعمار هو الآخر للتطور . .

قديما . . كان الاستعمار يلجأ إلى الغزو العسكرى . . كان يرسل جيشا يغزو ويطلق النار ويسفك الدماء ويحكم بالقوة .

مشكلة الحكم بالقوة أنها تؤدي إلى نشوء مقاومة مضادة طبقا للقانون الذى يقول « لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه » ماذا يفعل الاستعمار وهو مكروه تحتشد له المقاومة . . لابد أن يتطور . . أن يتجمل . . أن يرتدى أقنعة تخفى حقيقته ، وأن يستبدل بالبندقية الفكرة . . وأن يغير القهر إلى الحب . .

هكذا ولد الغزو الفكرى نتيجة للتطور الذى لحق بالاستعمار . . إن الغزو العسكرى يحتاج إلى نقود باهظة ، وهو ينشئ معارضة ومقاومة مسلحة . ويؤدى إلى صدام شعبى فى الغالب ، أما الغزو الفكرى فهو أرخص ثمنا . . إن تكاليف طباعة الكتاب أقل من تكاليف صنع البندقية . . كما أن تكاليف الدعاية لنظرية أو مذهب هى بالقطع أقل من تكاليف أى اشتباك عسكرى . . وصار هدف الغزو الفكرى صنع إنسان على صورة المستعمر . .

إنسان يفكر مثله ، ويحلم مثله ، ويعجب به ويتبعه .

ومن الغزو الفكرى ولد الغزو الاقتصادى ، ويتم ذلك بربط اقتصاد الدولة التى نستعمرها باقتصادنا بحيث تذهب حيث نذهب ، وتتجه حيث نتجه . .

إذا نجحت الدولة « الذئب » أن تربط الدولة « الحمل » بفكرها واقتصادها فأى حاجة لها لاستخدام القوة . . إن الحمل يكون قد تم التهامه حين يتبع الذئب إلى كهفه طواعية ، حتى لو كان يتصور أنه سيصير ذئبا لأنه يتبع الذئب . . من هنا أطلق الأذكياء على الاستعمار الجديد لفظ الاستحمار واللفظ الجديد أبلغ فى الدلالة على الموقف .

أزمة الحمير

قال صديقى : هناك خبر يهمك فى الجريدة . . قلت له ما هو ؟ قال قرر الدكتور يوسف والى حظر استيراد جميع أنواع الفصيلة الخيلية « حصان حمير ـ بغال ـ وغيرها » أو إدخالها إلى مصر بأى صورة من الصور ، وكا مكتب الأوبئة الدولى قد حذر من ظهور مرض طاعون الخيل الأفريقى ا بعض البلاد .

تأملت الخبر وقلت لنفسى هذا خبر من شقين ، شق يوجب إنسانيا زيا الحمير والاطمئنان عليها ، شق آخر يفيد أن هناك أزمة فى الحمير . . فإذا دا الخبر يحظر استيراد الخيل والبغال والحمير ، فهذا يعنى اننا كنا نستوردها . أحسست بالدهشة بعض الشىء . . كنت أتصور أننا نصدر الخيل والبغا والحمير لوفرتها ، ولم أكن أعلم أننا نستوردها . إنَ مصر أمة زراعية منذ أقد العصور ، هى مشهورة بكثرة الحمير والبغال فيها ، وفى آدابنا الشعبية حما كان يحمل الملح فسقط فى الترعة فخف حمله ، فلما حمل الاسفنج فى اليو الثانى قاده ذكاؤه إلى الترعة حيث أسقط نفسه فيها عامدا ليخفف من أحما فكاد ثقل الاسفنج يزهق أنفاسه ، وفى آدابنا الشعبية بغل دخل الإبريق ومازا يحاول الخروج منه .

كيف نفسر إذن استيرادنا للحمير والبغال والخيل أو احتمال استيرادنا لها ؟ أيكون الخلل فى الإنتاج قد وصل إلى الحمير فصارت تتناقص بعد أن كانت تزيد ، وأصبحت تبلطج بعد أن كانت تعمل . . تكون هذه أزمة إذا كان الأمر كذلك . .

إن حبى للحمير قديم ومعروف ، فإذا كانت هناك أزمة فى الحمير فإننى أول من يجب عليه الإسراع لمناقشة هذه الأزمة . . فكرت فى البداية فى أسباب الأزمة . . لقد كنت أتصور أننا نعيش فى عصر يمكن القول عنه دون مبالغة إنه هو العصر الذهبى للحمير ، وكانت لدى أسبابى فى ذلك . . منذ خمسين سنة كانت الحمير المصرية مكلفة بحمل البشر والمتاع ، وجر الأثقال والأحمال والعربات ، وكانت تضرب وتهان وتعمل طوال النهار عملها الشاق حتى ضرب المثل بقوة احتمال الحمير واتساع صدرها ، أما الآن بعد تطور النقل . فقد حلت الخيل الميكانيكية مكان العائلة الخيلية القديمة ، وصارت السيارات بديلا عن الخيل والبغال والحمير . . فما الذى جرى للحمير ؟ لقد قل عملها فلماذا قل عددها ؟ إن الأمر يحتاج إلى حوار سريع مع أصحاب الشأن .

حملت أوراقى وذهبت إلى حمار الحكيم وأنا أمنى النفس بحديث فلسفى . كنت أعرف توفيق الحكيم وأعرف أن حماره مثقف ، ويحب الكلام والفضفضة ولعله يكشف أبعاد أزمة الحمير فى تنهيقة واحدة صادقة .

ذهبت إلى حمار الحكيم فوجدته مكتئبا متهدل الأذنين حزين الملامح عازفا عن الكلام ، كان واضحا أنه مكتئب كالمثقفين لأسباب عامة ، حاولت إخراجه عن صمته فلم أفلح ، حدثته عن الموضوع الذى جئت من أجله فقال إنه منذ وفاة الحكيم لم يعد يدلى بأى أحاديث للصحافة ، احترمت مشاعره

كحمار وفى ، ولكننى رجوته أن يوجهنى لمن يتحدث معى من الحمير ، قال : اذهب إلى مسئول الحمير إنه حمار بيروقراطى قليلا ، ولكنه فصيح اللسان .

ذهبت إلى مسئول الحمير فلقينى بوجه جامد يخلو من المشاعر . . سألته هل نستورد الحمير حقا ؟ قال : وأى شىء فى ذلك ؟ إن جميع دول العالم تستورد الحيوان وتصدره ، والحمار الحصاوى فى مصر هو أصلا حمار يمنى قادم من الأحساء ، ولقد تطورت كلمة الأحساء على ألسنة المصريين إلى الحساوى فالحصاوى . . من الطبيعى أن نستورد الحمير . . إن عددنا يقل فأى شىء فى تكملة هذا العجز عن طريق الاستيراد ؟ قلت له : لقد تحسنت ظروف العمل عند الحمير بعد استخدام السيارات ، أليس غريبا أن يقل عملكم ويقل عددكم فى نفس الوقت ؟ .

قال مسئول الحمير : استغنوا عن السيارات ونحن نحملكم على ظهورنا . هل نحن رفضنا أن نعمل . . هاتوا لنا العمل ونحن نعمل .

قلت له : هذا منطق بيروقراطى بحت وهو يعنى وجود أزمة فى عالم الحمير.

قال مسئول الحمير : دعنا من الكلمات الكبيرة التى تستخدمها الصحافة كل شىء عندكم أزمة ، أو كارثة ، أو مأساة . . قد تكون هناك تجاوزات هذا وارد ، أو مشكلة صغيرة . . هذا محتمل . . لكن دعنى أؤكد لك شعار الحمير الحقيقية وهو أن كل شىء على مايرام ، وليس فى الإمكان أبدع مما هو كائن .

قلت له : ما هى المواصفات القياسية للحمار المستورد ؟ .

قال مسئول الحمير : يملأ الحمار استمارة حا . . شى الصادرة بالقانون رقم

٥٧٠٠ والمعدلة بالقانون رقم ٧٥٠٠ ، بعدها يخضع الحمار لامتحان طبى لمعرفة حال أسنانه ، ثم يخضع لامتحان موسيقى حيث ينهق ثلاث دقائق متصلة ويشترط أن ينهى التنهيقة بنشاز رائع وبشكل مفاجئ وغير متوقع . .

قلت لمسئول الحمير : ماذا ستفعل الحمير المحلية بعد قرار وقف استيراد الحمير الأجنبية .

قال : لن تفعل شيئا . . من دأب الحمير أنها لا تفعل شيئا .

قلت له : يرى بعض مثقفى الحمير أن المستقبل لا يبدو مشرقا بالدرجة الكافية . . كيف ترى المستقبل ؟ .

قال مسئول الحمير : المستقبل كلمة ليست واردة فى قاموس الحمير . . يعنى إيه مستقبل . . إن عقلنا مغموس فى اللحظة الحاضرة . . نحن أبناء الحاضر ولا علاقة لنا بالماضى ولا طموح لنا فى المستقبل .

قلت لمسئول الحمير : أرجو ألا يغضبك ما سأقوله . . ولكن هناك آراء تقول إن الحمير مهددة بالانقراض بعد انتشار وسائل النقل الآلية . .

قال وهو يتراجع إلى الخلف . . هذه شائعات تطلقها البغال عنا ، ولكننا نقول لهم ولمن يهمه الأمر إننا لن ننقرض . . بل سنزيد ونتكاثر .

قلت لمسئول الحمير : هل هناك تخطيط لهذه الزيادة .

أطلق مسئول الحمير تنهيقة تنم عن احتجاجه وقال : لا تحدثنى عن التخطيط أو المستقبل . . لا تعرف الحمير هذه الكلمات الغريبة التى تخلو من المعنى . . نحن نعيش يوما بيوم . . وساعة بساعة . .

قلت لمسئول الحمير : ما هى فلسفتك فى الحياة .

قال وهو يطلق تنهيقة ارتياح : اعتصار اللحظة الحاضرة كما يعتصر فك الحمار القوى حزمة من البرسيم الشهى . .

قلت : ما هى المشكلة التى تستعصى على التنهيق فى عالمكم الحميرى الذى يتميز بالصبر والوداعة . .

قال : مشكلتنا هى ندرة العلف وزيادة أسعاره ، لقد بح صوتنا من التنهيق والشكوى . . إن بطن الحمار كبطن التاريخ لا يملؤه شىء ، وقد دخل الشتاء وجاء والبرد يحب الأكل ، ولقد كادت الحمير تأكل بعضها البعض ، لولا بقية من حياء لأكلنا الأشجار والأرصفة ، والصبر مر ولولا مرارته لأكلناه . .

قلت له : ما هى الرسالة التى تحب توجيهها للجحوش الصغيرة . .

قال : أقول لهم نهقوا فهذه هى الحرية الوحيدة المتاحة لنا

المناخ المطلوب

يحكى أن رجلا زعم أنه يستطيع حمل عنزة بسهولة . . فراهنه الناس أنه لا يستطيع ، فقال أحضروا العنزة فى التو واللحظة ، فلما أحضروها حاول الرجل حملها فلم يستطع ، ووقع بها على ظهره وسط قهقهة الحاضرين .

ماظنك بهذا الرجل نفسه لو قال : أعطونى ناقة أحملها مع العنزة فإننى متعود على حمل الاثقال الثقيلة .

إن شيئا قريبا من هذا قد حدث للمثل العامى الذى يقول « ما قدرش يشيل معزة ، قال شيلونى جمل معاها » .

هذا المثل ينطبق كل الانطباق على القطاع العام والقطاع الخاص ، كما ينطبق على هيئة سوق المال وشركات توظيف الأموال .

لقد أسند القطاع العام لنفسه ، أو أسند الجهاز الإدارى الحكومى لنفسه وطبقا للقانون ـ مهمة الإدارة أو الإشراف على القطاع الخاص .

والقضية تثير الدهشة .

ففى الوقت الذى ينادى فيه الخبراء للقطاع العام أن يتحرر من قيود القطاع

العام . . كالبطء ومركزية القرار والمرتبات غير الكافية ، وفى الوقت الذى ينادى فيه الخبراء للقطاع العام أن يدار بأسلوب القطاع الخاص. ويستمتع بمزايا القطاع الخاص .

وفى نفس هذا الوقت نقوم.بمنح القطاع العام ، أو نقوم بمنح موظفى الدواوين سلطة إدارة مشروعات القطاع الخاص ، وهذا أمر غير مفهوم ولا نظنه يساهم فى حل الأزمة الاقتصادية .

نحن نتحدث عن إنتاج أكثر ، لمواجهة تزايد السكان وتزايد الاستهلاك .

إذا كنا جادين فى هذا فلنترك القطاع الخاص يدير نفسه تحت إشراف قانونى من الدولة ، وهو إشراف قانونى يجب أن يتسم بالثبات ، فلا تتغير القوانين الاقتصادية كلما اكتمل القمر بدرا وفج منه النور ، لأن هذا يشيع فى السوق إحساسا بالقلق ، فتختبئ رءوس الأموال ، ويركد الحال ، ويهرب المستثمر .

أما القطاع العام فلنجرب إدارته بشكل أكثر كفاءة وعدلا . . كفاءة من جهة الإدارة وعدلا من جهة المرتبات . . لو فعلنا هذا فسوف يزيد الإنتاج لأن الإنتاج فى نهاية الأمر هو محصلة مجموعة من العوامل التى تؤدى إلى خلق مناخ مستقر .

وبغير هذا المناخ يصعب كثيرا زيادة الإنتاج .

رسالة من الأسد

ماتت الأسود التى ذهبت إلى الكويت لعرض ألعابها فى سيرك الحلو ، وقد كتب أحد هؤلاء الأسود مذكراته قبل أن يموت ، وبعث بها إلينا عن طريق البريد العادة ، وهكذا تأخرت رسالة الأسد كل هذا الوقت . . يقول الأسد فى رسالته .

« أنا عصفور . . الأسد المصرى الذى ولد على أرض الكنانة ، ونشأ وترعرع تحت سماء المحروسة ، وشرب من مياه النيل السعيد . كان أبى أسدا من أسود أفريقيا التى إذا زأرت اهتزت آسيا وأوروبا من هول الزئير . ثم مضى الوقت ولم يعد أحد يهتز من زئيرنا ، ومضى الوقت واصطادتنا أوروبا وباعتنا مرة أخرى لافريقيا . .

وكان النصيب ـ وكل شىء فى الدنيا نصيب ـ أننى انتقلت إلى ملكية السيرك وبدأت حياتى مع الحلو . .

قال لى الحلو يوما : اسمع ياحلو . . نحن هنا نتعاون على الحياة والرزق . أنت تلعب الدور المطلوب منك وأنا ألعب الدور المطلوب منى ، ثم نتقاسم الغداء والعشاء بعد ذلك معا . .

قلت له : ولكننى ملك الغابة . .

قال : سابقا . . لاتنس سابقا . لقد تغيرت الدنيا وانتقلت الغابة من أفريقيا إلى المدن الكبرى اليوم . أنت فى غابة ، ولكنك أرزقى تبحث عن لقمتك . .

قلت له : لكن مكانتى كملك للغابة ، وحريتى الملكية . .

قال الحلو : مكانتك محفوظة ، وحريتك على عيننا ورأسنا ، أنت الآن أسد فى السيرك القومى ، وهذا قطاع عام ، أنت اليوم موظف حكومة له مكانته ودرجته . . لقد ترقيت من أسد إلى موظف بدرجة أسد . . صراحة . . سررت ولم أعد اشتغل ، وكلما قال لى الحلو اقفز فى النار أو اطلع السلالم أو مثل دور المذعور أو الشجاع ، كلما قال لى هذا صرفته عنى بعبارة الموظفين الخالدة .

فوت علينا بكره . . أو معلهش النهارة أنا تعبان . . ومرت بنا الحياة بأيامها التى تتراوح بين العسل والبصل حتى كبرت وتزوجت وأنجبت . وصار عندى كوم من اللحم الذى أجرى عليه . . وبدأت مشاكلى تتفاقم . .

ثم جاءنا خبر أننا سنسافر إلى الكويت . .

وقع خبر سفرنا إلى الكويت ، علينا نحن أسود السيرك وقعا بالغ اللطف . . سررنا للغاية وزأرت عدة مرات وقلت فيها قلته ـ جاءنا الفرج أخيرا . .

والحق أننى أنتظر السفر إلى الخارج بفارغ الصبر . . تسألوننى لماذا . . وسوف أقول لكم لماذا . . سوف أتنازل قليلا عن كرامتى . . سوف أنسى أننى من أسود الغابة ، وسوف أحدثكم عن مشاكلِى بمنتهى الصراحة . . كنت فى حاجة إلى نقود . . كانت ابنتى تتزوج من أسد بليد حاول الحلو عبثا تدريبه ولكنه رفض . . وكنا فى حاجة إلى ما يحتاج إليه الذين يتزوجون . .

وهكذا جاءت سفرية الكويت مثل صيد ثمين فوق طبق من الفضة . . تفاءلت خيرا وذهبنا إلى الكويت . .

قالت بعض الأسود : الدنيا حر فى الكويت . . وهناك صحراء ونحن

نريد الأشجار والظل والخضرة . .

قلت لهم : توقفوا عن الكلام الفارغ . . أى خضرة تطلبون ونحن فى رحلة عمل ولسنا فى نزهة ، إن عندى أربع لبؤات فى حاجة للزواج والتجهيزات . ماذا أفعل وأنا موظف . . ألا تعلمون أن الرزق يحب الخفية ، كما يحب الصبر . اصبروا . .

صبرت الأسود واستمعت للنصيحة على مضض . . وذهبنا إلى الكويت . وراح كل أسد أو لبؤة يحسب فى عقله بدل السفر والمكافآت والذى منه . ومرت الأيام وذات يوم حملت إلينا الرياح قصاصة من جريدة ، وقرأ أحدنا الجريدة فإذا هى تضم خبرا يقول إنهم قرروا فرض ضريبة على الموظفين الذين يعملون فى الخارج ، ولما كنا موظفين نتبع القطاع العام فقد عقدنا اجتماعا على الفور وبدأنا فيه سلسلة من الزئير الذى تم فيه تبادل الرأى والمشورة .

قال أحد الأسود : ما هذا الكلام . . هذا شىء لم نسمع عنه فى الغابة التى جئنا منها . . يسقط المطر شتاء ويسقط الظلم فى الشتاء والصيف .

وقالت زوجة أحد الأسود وهى تزأر على رأى المثل « لقيوا صرمه طالع (بضم الصاد) قالوا له هات حتة للقطة . . »

وكان هذا المثل العامى يعبر عن الموقف تماما ويثير الضحك مثلما يثير البكاء ، وهكذا انخرطنا فى بكاء له شكل الضحك حتى طق كبدنا وسقطنا ميتين من الضحك والزعل ، ومعذرة عن إرسال الخطاب بالبريد المعتاد فأنا موظف وليس معى ثمن البريد الجوى . .

الأسد المجنى عليه

حـل غير تقليـدى

قال صديقى الحكيم : عندى حل لمشكلة ارتفاع الأسعار وقلة الإنتاج
قلت له : ماهو الحل ؟

قال : إن الدعوة إلى الاتحاد والنظام والعمل قد أسفرت عن التفكك والفوضى والتسيب ، كما أن الدعوة إلى زيادة الإنتاج وتقليل النسل قد أسفرت عن زيادة النسل وقلة الإنتاج . . نحن نواجه مشكلة ليست تقليدية ونحتاج بالتالى إلى حلول ليست تقليدية . . أليس هذا ما تقولونه ؟

قلت له : نعم . . هذا صحيح تماما .

قال : اسمع إذن اقتراحى ، وهو اقتراح غريب وعجيب مثلما أن مشكلتنا أعجب وأغرب .

قلت له : هات اقتراحك .

قال : نقوم بحملة قومية فى الشعب المصرى ليتحول من أكل اللحم إلى أكل النباتات . . يعنى تحويل الشعب كله إلى شعب نباتى . . هذه هى الخطوة الأولى وهى خطوة تليها خطوات .

نقنع الشعب بأن أكل اللحوم ضار بالصحة ، وأنه يؤدى إلى النقرس

وتصلب الشرايين ، ونستضيف الأطباء للحديث عن حسنات الفول والعدس وسيئات اللحم والكبد .

إذا استغنينا عن اللحم بدأنا حملة قومية ضد رغيف الخبز ، وأثبتنا أن الخبز يؤدى إلى السمنة ، والسمنة تؤدى إلى المرض والمرض يؤدى إلى الموت . بعد استغنائنا عن اللحم والخبز نتحدث عن الآثار الجانبية للأرز والمكرونة بعد ذلك نتحول إلى الفول والطعمية ونقيم مؤتمرا لهما ، ونثبت فى هذا المؤتمر أنهما يعطلان الفهم ويعوقان الذهن ويسدلان عليه ستارة كثيفة من الغباء ذات اللون البنى الغامق .

إذا نجحنا بهذه الحملات القومية المتعاقبة فى تحويل الشعب المصرى عن الأكل . . وجهناه بعد ذلك إلى الشمس مباشرة . . معروف أن الشمس هى مصدر الطاقة على الأرض ، ولا ينمو لحم العجول ولا ينضج البطيخ إلا بهذه الطاقة ، والمطلوب فى هذه الخطة الطموح هو تحويل الشعب إلى الشمس ليستمد طاقته منها مباشرة ، فيأكل الناس ويشربون عن طريق الجلوس كل يوم فى الشمس وفتح أفواههم نحوها خمس مرات أو عشرا .

إذا نجحنا مثل فقراء الهنود فى استمداد الطاقة مباشرة من الشمس انحلت مشاكل الشعب المصرى ، وتفرغ لبناء مستقبله المشرق وسداد ديونه المتلتلة . وأداء رسالته التاريخية .

فى بيتنا جحش

كان صديقى يرتدى قميصه الأحمر وبنطلونه الأسود ، ولأننى أعرفه منذ نصف قرن فقد أدركت أنه فى أتعس حالاته النفسية . . إنه لايرتدى هذه الثياب إلا وهو مضعضع نفسيا . . ملت عليه وسألته خيرا ماذا بك ؟

قال من بين أسنانه لاشىء . . قلت له لست كعادتك

حدثنى عن همومك .

قال : جنس غريب هو النساء .

قلت له : فعلا . . هو جنس غريب . . لكن لماذا تقول ذلك . .

قال : إن زوجتى غاضبة . . وقد تركت البيت إلى بيت أمها . .

قلت له : هل فعلت شيئا أغضبها .

قال : بل فعلت شيئا تصورت أنه سيرضيها . . فعلت شيئا تصورت أنه سيسعدها . . فعلت شيئا تصورت أنها ستقع على ركبتيها من الفرحة .

قلت له : لا تبالغ ادخل فى الموضوع وقل لى ماذا فعلت .

قال : أردت أن أفاجئها فى العيد بشىء يسعد قلبها . . شىء يجعلها تقول إننى زوج مثالى . . زوج حنون . . زوج عطوف .

قلت له : لا تعمد إلى اللت والعجن . . وقل لى ماذا فعلت .

قال : خمن أنت ماذا فعلت .

قلت له : لعلك اشتريت لها هدية .

قال : تمام هذا ماحدث .

قلت له : ماذا اشتريت لها .

قال : اشتريت لها خروف العيد .

قلت له : هذا شىء لطيف .

قال : ها أنت قد حكمت فى القضية لصالحى .

قلت له : لا ليس هذا حكما . . إنما هو تعليق على شخص الخروف . . ولكى أحكم يجب أن أسمع القصة الكاملة بكل تفصيلاتها الصغيرة . . حدثنى عما حدث خطوة بعد خطوة .

قال الصديق : قبل العيد بأسبوع كنت أجلس فى مكتبى فى العمل مع مجموعة من الزملاء ، وكان الحديث يدور عن خروف العيد .

قال أحد الزملاء : لقد صار خروف العيد أثرا تاريخيا من الآثار الأسطورية المنقرضة ، كالعنقاء والفيل الأبيض والخل الوفى .

وقال زميل آخر : لقد غلا سعره وزاد ثمنه عن خمسمائة جنيه .

وقال ثالث : أنتم تتحدثون عن الخروف البلدى أو خروف القطاع الخاص وتنسون خروف القطاع العام .

رنت كلمة « خروف القطاع العام » بين الحاضرين رنينا غريبا . . تساءل واحد ماهو الفرق بين خروف القطاع الخاص وخروف القطاع العام .

قال صديق يسارى الاتجاه : إن الفرق هائل . . إنه الفرق بين الاستغلال والرفق . . بين الاستحالة والإمكان . . إن الخروف البلدى أو خروف القطاع الخاص يصل إلى ٦٠٠ جنيه ، أما خروف القطاع العام فهو يبدأ من ١٢٠ جنيها ولا يزيد على ٢٠٠ جنيه .

سال لعاب الجالسين عند ذكر هذه الأرقام ، عندئذ قرر صديقى « ن » أن يكون له شرف الحصول على هذا الخروف .

قال صديقى « ن » فيما بعد فى محاولة لتفسير ما حدث :

إن هناك أفكارا تبرق فى الذهن دون وعى ودون سابق استعداد أو تدبير أفكارا تشبه الإلهام ، ولقد هبطت على رأسى هذه الفكرة . . قلت فى نفسى إننى لم أقدم هدية لزوجتى منذ أن تزوجتها ، ولو قدمت إليها خروف العيد هدية فسوف يكون هذا تكفيرا عن كل سيئاتى تجاهها . وحيث إن هذا الخروف قطاع عام ، وحيث إنه خروف حكومى رخيص الثمن فسوف تكون سعادتها أكبر بغير شك ، وهكذا أفصح عن رغبته فى شراء هذا الخروف .

قال صديق يمينى الاتجاه : لاحظوا أن لحم الخروف البلدى يختلف عن لحم الخروف المستورد . . إن البلدى يؤكل كمايقولون أما الآخر ففى طعمه شك وفى أكله شكوك .

احتدم الصراع قليلا بين اليمين واليسار حول نوعية اللحم ، وكان واضحا أن أصحاب الاتجاه الأرستقراطى الذين يفرقون بين أنواع اللحم كانوا أقلية فى المجلس ، كان واضحا أن الفقر قد هبط بالذوق العام ، فلم يعد هناك من يتذوق البلدى من الأفرنجى ، وصار المعيار الوحيد للحكم على طعم الأشياء هو سعرها ، إذا كان رخيصا كان طعمها حلوا ، وإذا كانت غالية كان طعمها

سيئا ، ووسط هذا الجو ارتفعت قيمة خروف القطاع العام واستبعد التفكير فى خروف القطاع الخاص .

استقر الرأى على شراء خروف من خرفان القطاع العام ، ولكن أحد الأصدقاء أثار مشكلة . . قال إن خروف القطاع العام يحتاج إلى واسطة ونفوذ ويحتاج إلى معرفة وعليه زحام وقتال وضرب نار . . والحصول عليه أصعب من الحصول على الزمردة التى كان يحرسها التنين الشرس فى حواديت ألف ليلة وليلة ، عندئذ فكر صديقى « ن » فى الأمر ثم رفع سماعة التليفون وقال للسويتش ـ اطلب لى مكتب وزير التموين .

اندفع نحوه الأصدقاء قائلين أيها المجنون . . ماذا تفعل ؟

قال اصمتوا ودعونى أتصرف .

ساد صمت واجم بعد أن تهور صاحبنا وطلب وزير التموين من عاملة التليفون ، جرح أصدقاؤه الصمت وسأله أحدهم . .

هل تعرف وزير التموين ؟ قال : لا أعرفه .

عاد صديقه يسأله : كيف تطلبه وأنت لا تعرفه . . قال صاحبنا بجرأة : ألست مواطنا . . أليس هو مسئولا . . إن من حقى أن أطلبه . .

بعد لحظات من الصمت الثقيل رن جرس التليفون . . رفع صاحبنا السماعة وسمع صوتا يقول له : هنا مكتب وزير التموين . . أى خدمة . .

قال صاحبنا لمديرة المكتب : أرجو توصيلى بوزير التموين . .

قالت مديرة المكتب : السيد وزير التموين فى اجتماع الآن . . أى خدمة نستطيع أداءها لك . .

قال صاحبنا : أنا مواطن عادى . . ليست عندى واسطة وليس عندى نفوذ، وأنا أريد شراء خروف من خرفان القطاع العام ، ومعى صديقان يرغبان فى نفس الشىء . .

قالت مديرة المكتب : هذا أمر سهل ولا يحتاج إلى واسطة أو نفوذ . تفضل حضرتك مع زملائك بالقدوم إلى الوزارة وشراء الخراف التى تعجبكم .

وضع صاحبنا سماعة التليفون وقال لأصدقائه ما قاله ارشميدس حين اكتشف قانون الطفو . . قال لهم : هيا بنا إلى وزير التموين . . لقد وجدتها .

وصل الجمع إلى مكتب وزير التموين . . استقبلتهم مديرة المكتب أحسن استقبال ثم حولتهم إلى رياض افندى خبير الخراف المستوردة ، وصحب رياض افندى صديقنا فى جولة بين الخراف وهو يقول له :

اختر ما يعجبك وشاور عليه . . .

ومضى صديقنا « ن » يفكر فى السهولة التى تم بها الأمر ومن فرط السهولة بدأت الشكوك تراوده فى أنه انساق إلى فخ لا يدرى كنهه ، ومضى يدير حوارا مع خبير الخراف ، فسأله : هل طعم هذه الخراف يختلف كثيرا عن طعم الخراف البلدى . . قال خبير الخراف : أبدا . . لا يختلف الطعم كثيرا وإنما هذه الدنيا حظوظ ، والبلدى له شهرة لا يستحقها ، والناس تتحدث عن السمن البلدى واللحم البلدى والبلدى يوكل ، وهذه أساطير . . إن الجزارين يشترونها ويبيعونها على أنها بلدى ، وهم يوزعونها بشهرة البلدى والدنيا حظوظ وكم من مشهور تافه وكم من عظيم خامل رغم مواهبه . .

اقتنع صاحبنا بحكمة الكلمات ونعومتها وانساق إلى الفخ واشترى الخروف وذهب به إلى بيته . .

وهناك بدأت أولى مشاكله مع الخروف الذى كان وجهه مستطيلا أكثر مما ينبغى ويشبه وجه الجحش المندهش .

كانت المشكلة الأولى التى واجهت صاحبنا حين عاد إلى بيته هى أين يضع الخروف . . هل يضعه فى السطوح ، أم يضعه عند البواب .

مر على البواب وقال له : نريد أن نضع الخروف فى السطوح . . قال البواب بعد لحظة تفكير : ليس هناك سطوح . . لقد بنى صاحب العمارة دورا آخر ولم يجعل له حيطانا كما ينبغى للسطوح ، وهذا يعنى أن السطح الآن ليس مأمونا بالنسبة للخروف . . إن الخروف يمكن أن يقع منه ويموت . .

فكر صاحبنا فى البديل الثانى . . قال للبواب : هل تحتفظ به عندك حتى يأتى العيد فنذبحه . . قال البواب ضاحكا : أين أضعه يا سعادة البك إن أبنائى كثيرون ولا مكان بيننا لدبوس إبرة . . ثم إننى لا أطمئن عليه ربما يأكله أبنائى حيا ويحرجوننى مع سعادتك . .

عندئذ فكر « ن » فى خط الدفاع الثالث . . لم يبق غير البلكونة فى بيته هو. وصعد السلالم بالخروف ومضى الخروف يقاوم الصعود مقاومة شديدة حتى فتح الباب وأدخله إلى البلكونة فى صمت وربطه فيها وانصرف يبحث عن زوجته . . اكتشف أن زوجته نائمة ، وجلس فى الصالة سعيدا يفكر ماذا يقول لها حين تستيقظ وترى الهدية وتسعد بالمفاجأة . . نعس الزوج قليلا أثناء جلوسه على الكنبة . . استيقظ على صوت صرخة قصيرة . .

فتح عينيه وبحث عن مصدر الصوت واتجه مسرعا إلى البلكونة . . وصل إلى البلكونة فوجد زوجته تقف أمام الخروف وقد سمرها الرعب .

قالت له : ماهذا الحيوان ؟

قال الزوج : هذا خروف العيد . . لقد اشتريته لك هدية وكل سنة وأنت طيبة .

قالت الزوجة : هذا الحيوان لا يشبه الخروف .

قال الزوج : أقسم لك بالله العظيم أن هذا خروف .

قالت الزوجة : الخروف له « لية » وهذا ليس له « لية » والخروف يقول ماء وهذا لا يقول شيئا . . إنه يكح فقط ، ثم إن وجهه يشبه وجه الجحش لا الخروف . . يجب أن يخرج هذا الحيوان من البيت على الفور .

قال الزوج وهو يحس بخيبة الأمل : لقد تصورت أنك سوف تسعدين من وجود الخروف .

قالت الزوجة : أين هو الخروف الذى تتحدث عنه . . لقد ضحكوا عليك وباعوك جحشا صغيرا على أنه خروف . . ماذا أفعل الآن فى هذه المصيبة ؟

نظرالزوج فى وجه الخروف فوجده يشبه وجه الجحش فعلاً . . وضحك ضحكة قصيرة ، ولكنه عاد يقطب من استقبال زوجته العدائى للهدية . . وتحرك الزوج للدفاع عن الخروف فقال لزوجته :

لا تظلمى الخروف فهو خروف مستورد . . خروف موظف وتعيس من خرفان القطاع العام ، ولأنه فقير فهو لا يأكل كثيرا ، ولهذا السبب لم تعد له «لية » ، إنما صار له ذيل صغير ، وهذا أفضل ، لأن هذا يعنى أن لحمه ليس مليئا بالدهن الذى يميز الخرفان البلدى أو خرفان القطاع الخاص . . إن هناك مأساة وراء هذا الخروف ولو أحببت أن أحكيها لك فعلت . .

قالت الزوجة ببرود : لا أريد أن أسمع حواديت عن الخروف . . كل ما أريد أن أعرفه كم يوما سيمكث هذا الجحش الصغير فى البيت ؟ . .

قال الزوج : سيمكث حتى العيد . . يعنى أربعة أيام أو خمسة . .

قالت الزوجة : لا أظن أننى سأحتمل وجود هذا الجحش فى البيت خمسة أيام أخرى . .

كان الخروف جالسا أثناء هذا الحوار ، وكان يستمع للحوار وهو ينظر إلى الناحية الأخرى ، ولا أحد يفهم بالضبط ما أثاره فى الحوار لأنه نهض واقفا وكح كحتين قصيرتين وأسرع يجرى ، ولكن الحبل المربوط فى رقبته أعاده إلى مكانه . . عندئذ شرع الخروف فى تزبيل المكان كله ، ومضى يفعل ذلك كأنه يتحدى الزوجة أو ينتقم منها . .

وصلت رسالة الخروف إلى الزوجة فرفعت صوتها ثائرة وقالت بغضب .

الخروف يتحدانى ويملأ البلكونة بالزبل . . هذا بيت محترم وليس زريبة . . من الذى سينظف البلكونة الآن ؟

قال الزوج معتذرا : سأقوم بتنظيف المكان فلا داعى للصراخ أو الغضب .

حاول الزوج تنظيف البلكونة فكان لابد من نقل الخروف من طرفها الشمالى إلى طرفها الجنوبى ، وقد رفض الخروف الحركة ولم يمكن نقله إلا بعد استدعاء البواب ، وعندئذ قام الزوج والبواب بحمله إلى الجزء النظيف حتى تم تنظيف البلكونة وأعاداه إلى مكانه الأصلى . .

وبدا واضحا للزوج أن الكراهية قد وقعت بين الزوجة والخروف ، وأن كل واحد منهما قد جعل عقله فى مواجهة عقل الآخر ، ومضى يتحدى الآخر تحديا سافراً لا لبس فيه ولا غموض . .

وحاول الزوج إطفاء نيران الكراهية أو تخفيف حدة الصراع ولكن الأمور كانت قد خرجت من يده تماما . .

بعد ساعات من وجود الخروف فى البيت قالت الزوجة لزوجها فجأة .

اسمع . . إذا بات هذا الجحش فى البيت فلن أبيت فيه . اختر بيننا فورا . . أنا أو الجحش .

قال الزوج لزوجته : اعملى « معروف » ولاداعى لتحكم الرأى . . أين أذهب بالخروف الآن وقد هبط الليل ونزل الظلام .

قالت الزوجة : لن أبيت فى زريبة للبهائم .

قال الزوج لزوجته : هذا خروف مسكين انظرى إلى تعبير عينيه . . انظرى إلى الخوف المستسلم فى عينيه .

قالت الزوجة : لماذا لا تنظر إلى رائحة البلكونة التى أصبحت كالزريبة .

قال الزوج : لماذا تتجاهل نظرتك الأشياء الجميلة ؟

قالت الزوجة : أين هى الأشياء الجميلة ؟

قال الزوج : تصورى لحم هذا الخروف وقد تحول إلى صينية بطاطس باللحم ، أو تصورى الممبار وقد حشى باللحم والأرز .

قالت الزوجة : هذه طفاسة . . أنا لا أطيق لحم الضانى .

قال الزوج فرحا : ليس هذا الخروف « ضانى » . . هذا خروف قطاع عام . . هذا خروف كندوز . . ليس فيه دهن لقد ولد القطاع العام عملاقا وإن أصبح جلدا على عظم ، وهذا الخروف ينتسب إليه . . صدقينى .

لم تصدقه الزوجة ، ومرت الليلة الأولى بعد أن أمهلته الزوجة حتى صباح الغد لكى يبحث عن مكان يأوى فيه الخروف بعيدا عن البيت . ومضى الزوج طوال الليل يفكر . . أين يذهب بالخروف . . هل يذهب به عند صديقه

الأعزب أم يذهب به إلى حديقة الحيوان ، أم يذهب به إلى الجزار لبيعه والخلاص منه . . وأحس الزوج أنه ليس حرا ، لقد فقد حريته حين تزوج . . لم يعد يستطيع أن يأوى جحشا صغيرا أو خروفا فى بيته ، لقد احتمى به الخروف من زوجته لكنه خذل الخروف وانخذل أمام زوجته ، وكبرت فى رأس الزوج وهو نائم يفكر . . لقد أساء اختيار زوجته حين تزوج . . بدت له هذه الواقعة واضحة أكثر مايكون الوضوح ، وراح سوء حظه يتمايل أمام عينيه طوال الليل ، ثم سمع كحة قوية تبعتها كحتان كان الصوت يقول احم . . واستيقظت زوجته وهى تسأل ماهذا الصوت . . كان الخروف يكح . وقالت زوجته : لقد استبدل الخروف المأمأة التقليدية للخراف بهذه الكحة التى تشبه قول القائل الغريب ياساتر اذا دخل بيتا لا يعرفه .

إنشــاء عربــى

جلست أفكر فى سر متاعبنا ومصائبنا ونبعها الأصيل الذى تنبع منه فوجدت أنه « مادة الإنشاء العربى » . .

هذه مادة كانوا يدرسونها لنا فى المدارس . . ومازال تدريسها مستمرا وإن أخذت اسما جديدا هو « مادة التعبير » . .

كان موضوع الإنشاء يقول لك مثلا .

اكتب وصفا للقاهرة فى يوم مطير .

أو يقول لك ـ اكتب فى الموضوع التالى .

إنــمــا الأمــم الأخلاق ما بقيت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكنا نكتب وندش ونطيل ونقول ونعيد ونزيد . .

هذه المادة اللعينة هى سر تخلفنا وسر متاعبنا . . اسألونى كيف جعلت هذه المادة القول بديلا عن الفعل . . جعلته قائما مقام الفعل . . لم يعد مهما ماذا تفعل ، وإنما أصبح المهم هو ماذا تقول ، والقول سهل كما تعرفون

ويمكن للمرء أن يكتب مجلدات فى معنى أخلاق الأمم التى تذهب الأمم بذهابها ، فى نفس الوقت الذى يعيش فيه حياة لا علاقة لها بالأخلاق أو المبادئ . .

لقد انطلقت هذه المادة . . مادة الإنشاء العربى ، كالأسد المصور وأكلتنا . . أطبقت أنيابها ومخالبها على رقبتنا ، ولونت كل حياتنا وصارت هى كل ما نفعله . . صارت هى ذروة جهدنا إن بذلنا الجهد . .

أصبح كل الناس يتكلمون بالإنشاء . .

أصبح الاقتصادى يتكلم بالإنشاء بدلا من الأرقام وصار السياسى يتكلم بالإنشاء بدلا من المصالح ، وأصبح الوزير يتكلم بالإنشاء بدلا من التخطيط . . أصبح المذيع والمهندس والميكانيكى والطبيب يتكلمون بالإنشاء بدلا من استخدام لغاتهم الأصلية بمفرداتها الخاصة المتخصصة . . باختصار. صارت الإنشاء العربى هى لغة كل إنسان ، وبهذه النتيجة السعيدة افترق القول عن الفعل . . ذهب الفعل فى طريق الندامة ، وسار القول فى طريق السلامة . . وذهب الإنسان نفسه فى الطريق الذى لا يرجع منه أحد . .

لم تعد اللغة تشير إلى حقيقة ما . . صارت أصواتا بلا معنى . . لم يعد كلام الناس ينطوى إلا على الوهم والتهيؤات ويتعامل مع الأوهام والأحلام . . لو كان على بن أبى طالب حيا لتمنى قتل مادة الإنشاء العربى مع الفقر .

لقد قادتنا إلى الفقر دون أن نحس .

حـوار مع دهـل

اتصل بى صديق من رجال الأعمال البارزين . . قال وهو يضحك لقد قرأت مقالك واكتشفت أننى « دهل » .

قلت له : عفاك الله وشفاك . . كيف اكتشفت ذلك ؟

قال : لقد ارتديت مرة فردة حذاء أسود مع فردة حذاء بنى ، واكتشفت ذلك وأنا فى السيارة فى طريقى لاجتماع هام . . قلت فى نفسى هل أعود إلى البيت وأغير الفردتين أم أستمر . . لم يكن عندى وقت . . قدرت أن ثقتى فى نفسى ستمنع الناس من رؤية فردتى الحذاء ، وقلت فى نفسى . . لو افترضت جدلا أن أحدا لاحظ الموضوع فسوف أضحك وأقول إنها المسئوليات والمشاغل . . هاها . . وسيمر الموقف بسلام . . وقد حدث ما توقعته لم ينظر أحد إلى حذائى . . هل يعنى هذا أننى « دهل » . . لا تجاملنى وقل لى بصراحة .

قلت له : بصراحة أنت « دهل » .

قال لى : هل تعرف كيف أصبحت « دهلا »؟ . . إنها المسئوليات . . المشاغل . . إننى أفكر فى آلاف الأشياء . . إننى مسئول عن آلاف البشر .

والإمكانيات المتاحة قليلة ، وذهنى يعمل دائما . . كيف تتوقع منى أن ألاحظ لون الحذاء أو لون الشراب

قلت له : كان الله فى عونك .

قال : أليس هذا مبررا للتخفيف من وصف « الدهل » ؟

قلت له : إنه مبرر لا بأس به .

قال : ماذا أكون إذا لم أكن « دهلا » .

قلت له : بالنظر إلى هذه الظروف المخففة . . تكون « ترلا »

قال بحزن : الترل أرحم من الدهل .

قلت له : لا تبتئس ولا تفقد الأمل فى العلاج .

قال : هل هناك علاج لحالة « الدهل » أو « الترل » أو « الكدن »

قلت له : ليس هناك علاج حاسم ولكن الوقاية فى هذه الأمور خير من العلاج .

قال الدهل : كيف يتقى الإنسان هذه الآفات ؟

قلت له : لا تأكل كثيرا من الفول المدمس لأنه يضعف مناعة الجسم ضد الدهلية ، ولا تجلس طويلا أمام التليفزيون حتى لا تصير ترلا ، وتخلص من أحذيتك وشراباتك ، واحتفظ بحذاء واحد وشراب واحد . . واغسل يديك جيدا قبل الأكل وبعده .

المغفـل والزهقانـة

كان وجهه ممتقعا ، أما نظرته فكانت تمتد إلى الأفق ، ولاتتوقف عند شيء من الكائنات ، وكان يبتسم ثم يسرح ثم يعاود الابتسام سألناه . مالك . . هل أنت مريض أو متوعك ؟

قال : أمر بتجربة مثيرة لم تحدث فى حياتى من قبل . . .

عاد يقول وهو يهمس : تتصل بى هذه الأيام عفريتة أو جنية من تحت الأرض . انفجرنا نضحك فسكت عن الكلام . . تصنعنا الجد وسألناه .

كيف تتصل بك الجنية .

قال : فى التليفون . . لقد ضربت نمرة عشوائية فخرجت نمرتى . . كتمنا رغبتنا فى الضحك وسأله أحدنا : حدثنا كيف واهتم بالتفاصيل الصغيرة .

قال : رن جرس التليفون رنة تشبه رنة العفاريت . . لم يضرب جرسا متصلا كما هى العادة ، وإنما دق رنة واحدة ثم سكت . . رفعت السماعة فسمعت صوتها . . وديعا هادئا ناعما وأقرب إلى النعاس ، أحسست أن أعصابى تهدأ ، وأن شكوكى تزول ، وأن مشاعرى تستقر . وأن مخاوفى تتبدد مثل غيمة جرؤت على تحدى الشمس فأذابتها الشمس .

كان صوتها مثل قرص مهدئ يتسلل إلى أعصابى كلها فتهدأ . . . . كان صوتهاقاطعه أحدنا قائلا : دعك من التفاصيل الصغيرة وادخل فى الموضوع .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ قال : استمرت تتصل بى .

سألناه : كيف عرفت الجنية نمرتك .

قال : لم أكد أسمع صوتها حتى انسكبت مثل ماء ينسكب من جردل قديم سألتنى من الذى يتحدث ؟ فقلت لها اسمى . . قالت نمرتك كام ؟ فقلت لها على النمرة . . قالت أنا زهقانة وقد طلبت أى نمرة وأريد أن أتحدث قليلا مع أحد من الإنس . . هل أنت فاضٍ أم مشغول ؟ قلت لها محسوبك صايع وليس وراءه أى عمل ، ومضينا نتحدث فكدت أجن . . إن دمها أخف من دم النسانيس . . لقد كنت أضحك من كلامها ، وكانت تضحك على كلامى فلما انتهى الحوار سألتها : حضرتك مين . . قالت إنها جنية من تحت الأرض . . ماذا أفعل الآن ؟

كان يسألنا النصح ، وقال له أحدنا : ماذا تعرف عنها وماذا تعرف هى عنك ؟ قال : تعرف كل شىء عن أحوالى ولا أعرف عنها أى شىء .

قال له أحكمنا : توقف عن الكلام معها ولاتكن مغفلا ، فإنها أحد أمرين . . إما دسيسة من مصلحة الضرائب أو هيئة سوق المال ، وإما أن تكون جنية فعلا ، ولكن من بنى الإنس العوانس وترسم على الزواج منك . انج سعد فقد هلك سعيد .

يا حـــلاوة

المصريون قوم محبون للحلاوة . .

وبالتالى فهم على قدر من الحلاوة ، ويقال فى الامثال العامية « إن الذى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى » . . وقيل فى رأى آخر إنه فكهانى ، وليس الأمر مهماً لأن الحلوانى والفكهانى معا يبيعان الأشياء الحلوة ، وهذه إشارة إلى حلاوة المصريين وحبهم للحلاوة . .

ومنذ سنوات غنت المؤرخة صباح للنادى الأهلى ونادى الزمالك بسبب الضجة التى كانا يثيرانها كل عام فى الدورى ، فقالت إن الاثنين حلوين . .

وهذا التصريح التاريخى يؤكد موضوع حلاوة المصريين عموما . . وبسبب هذه الحلاوة يميل المصريون إلى الحلاوة . .

والحلاوة أنواع كما نعرف . .

منها ما هو معنوى كقول القائل إن فلانا حلو المعشر ، ومنها ما هو مادى كالحلاوة الطحينية . .

وقد خرجت هاتان الحلاوتان تقريبا من حياة المصريين ، أقصد حلاوة المعشر والحلاوة الطحينية .

أو فلنقل إنهما دخلتا المتحف باعتبارهما أثرين تاريخيين من حق الأجيال القادمة أن تراهما . .

أما حلاوة المعشر فقد اختفت بعد أن حاربت معركة عنيفة مع السوقية والابتذال وسيادة نماذج من السلوك التى جاء بها الأغنياء الجدد فى المجتمع . .

لقد جاء هؤلاء الأغنياء الجدد بضحالة نفوسهم وإجداب قلوبهم بمجموعة من القيم المادية الهابطة مثل ـ قل لى كم قرشا فى جيبك أقول لك كم تساوى؟

جاءوا ايضا بفنونهم الفجة التى تعتمد على تحريك الغرائز الدنيا فى الإنسان وحاربت القيم الرفيعة زمنا ، ولكن معسكرهم كان يخلو من الأنصار يوما بعد يوم ، وزاد عدد المتسللين من هذا المعسكر ، وهم متسللون كانوا يخرجون من معسكر القيم الرفيعة إلى معسكر الأمر الواقع حيث خلعوا أقنعة الحياء وانضموا إلى الراقصين المتحدين . .

هذا ما كان من أمر حلاوة المعشر والذوق . .

أما الحلاوة الطحينية ، وكانت طعام الفقراء ، فقد اختفت هى الأخرى وذهبت للمعسكر الثانى . .

وهكذا يقول المصريون اليوم : يا حلاوة . . دون أن تكون هناك أى حلاوة .

الشحات والدنيا !

الشحاذ له نصف الدنيا .

هذه عبارة قديمة اشتهرت على ألسنة العوام ، وبقى معناها غائبا عن الذهن . .

مامعنى أن الشحاذ له نصف الدنيا ؟

من أين جاءته هذه القسمة وكيف تصير إليه نصف الدنيا وهو شحاذ متسول بائس .

هنا تكشف اللغة عن عبقريتها ، وتبدو المعانى وهى تخلع نقابها وتكشف ملامحها للشمس . .

إن الشحاذ له نصف الدنيا تعنى أن الشحاذ يكسب بلا عمل ، وبلا مجهود ، وتعنى أنه سيجد دائما من يعطيه شيئا لله ، وتعنى أن عليه ألا يقلق أو يبالى . فهناك دائما محسن يخاف عذاب الآخرة ، والمسألة مستورة بإذن الله ولا داعى لأى قلق . .

هذه الفلسفة الشحاتزمية تتلخص فى الحكمة التالية :

إن للشحاذ نصف الدنيا . . ليجتهد إذن فى النصف الباقى وليدع هذا النصف المضمون فسوف يأتيه . .

هذا معناه أن الشحاذ مطالب بالاجتهاد فى الشحاتة ، ولكن اجتهاده هنا محكوم بفن الشحاتة . . إنه اجتهاد لا إلحاح فيه ولا عمل . . هو اجتهاد بسيط محكوم بالمنطق العام للشحاتة ، وهو الكسل التام ، مثل تحريك اللسان ولو بصعوبة ببعض الأدعية المحفوظة التى يراعى فيها أن تخيف الزبون المتصدق ، وتقنعه فى نفس الوقت بأن يدفع شيئا ، لأنها لو اقتصرت على تخويف الزبون لكانت بلا جدوى . .

وقد تطورت مهنة الشحاتة فى عصرنا عن العصور السابقة كثيرا . وتحولت المهنة من مهنة فردية إلى مهنة جماعية . .

وصارت هناك شعوب ودول ومؤسسات تقوم بنفس الدور القديم الذى كان يقوم به الشحات حين يقول :

حسنة قليلة تمنع بلاوى كبيرة . . لله يامحسنين . .

إن موضوع التسول طويل وشائك ، وهو ملىء بالمفارقات والعجائب . والحواديت والغرائب ، ولكن مع ملاحظة أن هذا كله يتم فى إطار منطق التسول . أى يتم بكسل رائع يتوكأ على عصا العجز والتوانى . .

وقفة على الأطـلال

كان من تقاليد أسلافنا من الشعراء العرب أن يبدءوا قصائدهم بالوقوف على الأطلال ، والبكاء عليها . .

هنا كان بيت ليلى قبل أن يحل أبوها حبال الخيمة ويذهب إلى حيث لا يدرى أحد ، وهنا كانت ليلى تخرج بعد العصر لتسقى الأغنام . .

وفى هذا الحر المخيف كان قيس يختبئ فى ظل أحزانه لكى يلقى على ليلى نظرة سريعة خاطفة . .

ويتوحد الشاعر بمشاعر المحب ويبكى بدلا منه قليلا ويغسل عينيه كالأطفال ثم يدخل بعد ذلك فى موضوع القصيدة الأصلى ، لا فرق بين الفخر والهجاء أو المديح أو الرثاء . . إن كل هذه الأبواب تأتى بعد الوقوف على الأطلال . .

والأطلال هى الخرائب . .

وهى موجودة فى حياتنا كما كانت موجودة فى حياة أسلافنا ، وهى تنتظر دائما من يقف عليها ويذرف الشعر . .

حدثت نفسى بهذا الحديث وأنا اتأمل الخرابة المجاورة التى تطل عليها غرفة نومى . .

إن الخرابة ترتفع نحو الدور الرابع الذى أسكن فيه ، وبعد عشر سنوات أو عشرين سيصير النزول من شباك غرفة النوم أسهل من النزول عن طريق السلم وهذا إنجاز ثورى فى حد ذاته ، وهو إنجاز فيه تيسير على المواطنين الذين يسكنون فى الأدوار العليا .

تأملت الخرابة وقلت لنفسى : غدا يهجم الصيف ويبدأ معه المسلسل التقليدى « الذباب لا تهمه المبيدات » . .

عندئذ يعيش المرء فى خطر . .

هذا كله مقصود وينبع من فلسفة نيتشة ودعوته الصريحة « عيشوا فى خطر» إن الخطر يشحذ الحواس ويثير ردود فعل من التحدى ، وهذا كله مطلوب ومرغوب فيه لكى تشغلنا أنفسنا عن أى قضايا عامة ، ونظل طوال الوقت وليس أمامنا من سبيل للتصرف سوى الوقوف على الأطلال واستعادة الذكريات والإجهاش بالبكاء .

ادفعـوا لأمـر حامله

عقد الجنيه المصرى مؤتمرا صحفيا أعلن فيه عن قراره باعتزال اللعب بعد حياة اقتصادية سعيدة ، كان فيها بطل الأبطال الذى لايطال . . كان المؤتمر الصحفى أشبه مايكون بفضفضة هدفها التسرية عن القلب المكلوم . .

فى بداية المؤتمر وقف الجنيه خطيبا فقال :

إنهم يقولون . . ماذا يقولون . . دعهم يقولون . . إنهم يقولون قلت قيمة الجنيه المصرى وبطل ، وجار عليه الزمان فانهطل ، وبعد أن كان شعاره المرفوع يقول « ادفعوا لأمر حامله » ، صار شعاره المدفوع نسيئة يقول «ارحموا عزيز قوم ذل » . .

هذا مايقولونه ، وقد فكرت أن أرد عليهم بقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو . . أنى
لـريـب الـدهـر لا أتضعضـع

لم أستطع أن أقول ماقاله الشاعر لأننى تضعضت من السياسات الاقتصادية المرتجلة التى كانت تتعاقب عليها البرودة والسخونة ، والرطوبة

واليبوسة ، حتى وهنت عظامى وانسخطت ، وهبطت قوتى الشرائية من جنيه من الذهب وخمسة تعريفة ، إلى قرش صاغ مصرى واحد فقط لاغير . . إن الناس تسمى العشرة جنيهات اليوم باسم البريزة ، وهذه إهانة أرفضها بإباء وشمم . . من هنا أعلن من هذا المنبر الجغرافى عن قرارى التاريخى بالاعتزال ولست أنكر أننى حزين ، وأن قلبى مجروح مثل قلب فريد الأطرش ، ولكن ماذا أعمل إذا كان المصريون لا يكترثون ، وكيف أكترث لمن لا يكترث لنفسه .

عند هذا الحد من الحديث حدث هرج ومرج ، وتصاعدت الصيحات والنداءات ، واختلط الحابل بالنابل ، وبكت العملات الصغيرة كالتعريفة والقرش والشلن والبريزة بسبب قرار عميدها الاعتزال ، وانفض الاجتماع على الفور ، ونشرت الصحف فى اليوم التالى خبرا يقول « نفى الجنيه المصرى بالأمس هذه الشائعات التى ثارت فى الآونة الاخيرة عن قرب اعتزاله ، وقال الجنيه إنه مستمر فى كفاحه ، وإنه لن يهدأ له بال حتى يسبق الدولار ويهزمه وينكد عليه عيشته » وقد أوضحت المصادر العليمة أن هذه الشائعات التى تروج عن الجنيه المصرى هى شائعات مغرضة لا أساس لها من الصحة وهدفها البلبلة والزغللة .

حلم يقظة

أعلن الدكتور محمد الرزاز وزير المالية أمام لجنة الموارد والخطة بمجلس الشعب ، أن من المغالطة القول بأن الحكومة تلجأ إلى طبع بنكنوت لمواجهة عجز الموازنة بالكامل ، والواقع أن الحكومة تتخذ هذا الإجراء لتمويل جزء من العجز وليس كله ، وهدفنا فى النهاية أن يستقر العجز عند حدوده الآمنة دون تجاوزها .

قرأت كلمات الدكتور محمد الرزاز وانشكحت . .

هذا كلام واضح وصريح وهو يشجع المرء على التقدم بالطلب التالى لوزير المالية ، وهو طلب يدخل فى باب أحلام اليقظة . .

ماذا لو عممنا هذا الموضوع وجعلناه مناصفة بين الحكومة والشعب . وتفصيل ذلك أن تعطى الحكومة لكل مواطن مكنة لطبع البنكنوت ، على أن يؤخذ على المواطن تعهد بألا يطبع نقودا لمواجهة عجز موازنته بالكامل . وإنما يطبع ما يكفى لتمويل العجز المطلوب فقط . . استسلمت مع حلم اليقظة وتصورت نفسى جالسا القرفصاء أو واقفا القرفصاء أمام مكنة طبع البنكنوت . .

أغرقنى إحساسى بالسعادة والمسئولية ، وساءلت نفسى ـ كم أطبع من الشلنات والبرايز ، وكم أطبع من الجنيهات والعشرات ، إن الإغراء شديد . ولكن الإحساس بالمسئولية قائم وموجود ، ولو أننى طبعت نقودا بلا عدد فسوف يصل ثمن البطيخة إلى خمسة آلاف جنيه . .

لابد من مراعاة الحرص إذن وضرب المثل على الزهد وعدم التجاوز فى طبع ما يزيد عن سد عجز ميزانيتى وحدها . . . .

إن الحكومة أسوة ، ويجب عدم تجاوز الحدود وإلا فسد كل شىء . . إن ميزات هذا الاقتراح المقدم هو التخفيف من أعباء الحكومة والتعاون معها فى طبع البنكنوت . .

أما عيوب هذا الاقتراح فهى الخوف من أن بعض ضعاف النفوس من المواطنين يمكن أن يستغلوا الموقف ويطبعوا بنكنوتا بغير حساب ، ولكن هذه قضية يمكن حلها بأخذ تعهد عليهم فى قسم البوليس بعدم التجاوز . . ومضيت أسبح مع الأحلام ثم قلت لنفسى ، إن من الأفضل أن تكون مكنة طبع البنكنوت هذه لطبع الدولارات الامريكية حتى يساهم المرء فى دفع جزء من ديون مصر ويعاون الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية فى دفع جزء من ديونهم وحل أزمتهم الاقتصادية . .

قـراءة فى اوراق الـكـرة

قال شكسبير : ما الدنيا إلا ملعب كبير .

الشىء الذى لم يذكره شكسبير أن الدنيا ملعب لكرة القدم ، إن الدنيا كرة والقمر كرة ، والشمس كروية هى الأخرى ، ولعل هذا هو سر ازدهار لعبة الكرة .

إنها اللعبة الأولى فى العالم المعاصر اليوم ، وعدد جمهور الكرة هو تقريبا عدد جمهور الكرة الأرضية .

وقد ولدت فى مجتمع يهتم بكرة القدم ، وحاولت أن أهتم مثل الباقين بالكرة فلم أستطع .

شاهدت أكثر من مباراة محلية ، ولم يقنعنى ما شهدته بالانضمام إلى الجمهور العريض للكرة .

لاحظت أن اللعبة مملة وساكنة ، وتخلو من تدبير ، عندئذ عزفت نفسى عن الكرة .

وقد ظللت هكذا حتى شاهدت أول مباراة دولية فى الكرة . كان ذلك فى

كأس العالم منذ سنوات ، وجلست أتفرج على لعبهم فى الكرة وأصبحت من هواة الفرجة على الكرة .

كيف حدث ذلك ؟

وما هو الفرق بين لعبنا للكرة ولعبهم للكرة ؟

هذا سؤال نحاول الإجابة عليه عن طريق الفن ، والإدارة ، إن الفرق بين لعبنا للكرة ولعبهم للكرة هو الفرق بين الموال الصعيدى الذى يقول :

كل المجاريح طابوا بس انا فاضل .

وطبيب الجراح داوى الجراح وانا فاضل .

إن الفرق بين هذا الموال والسيمفونية الخامسة هو الفرق بين لعبنا للكرة ولعبهم لها .

إن الموال من حيث الأدوات الموسيقية المصاحبة له عمل بسيط وغير مركب إذ يكفى فيه الناى مع الصوت البشرى .

أما السيمفونية فهى أكثر من مائة آلة موسيقية تعمل معا فى اتساق وهارمونية « أو انسجام » .

والسيمفونية بناء موسيقى معقد ، إن لها هيكلا داخليا وشكلا خارجيا . وهى حركات تتعاقب بين السرعة والبطء ، وهى قدرة على الأداء الجماعى فلا أحد يستطيع أن يعزف بفمه السيمفونية وتجىء مثل عزفها بالآلات الموسيقية .

هناك فرق ، هو نفسه الفرق بين قبائل متفرقة تلعب الكرة ، ودولة حديثة تلعب . إن القبائل المختلفة لها مصالح متعارضة ، وهى تقذف الكرة هنا أو هناك كيفما اتفق . أما الفريق فيلعب معا بهدف إدخال الكرة فى الشبكة .

إذا انتقلنا إلى المستوى الإدارى فسنكتشف أن كرة القدم الأوروبية إدارة بالأهداف ، بينما كرة القدم العربية إدارة بالأبهة .

من هنا تزيد المهارات الفردية عندنا ويكثر الترقيص والمحاورة ، ولكن شيئا لا يحدث ، أما عندهم فإن الكرة تتردد بين أقدام اللاعبين وتستقر أخيرا فى الشبكة .

وفى ظل الإدارة بالأهداف يمكن حساب المفاجآت وتوقعها ، أما فى ظل الإدارة بالأبهة واللخمة فإن المفاجأة تقع على القبائل اللاعبة وقوع السكين فى الزبد .

والفرق بين كرة القدم الحديثة وكرة القدم الحوارية « نسبة إلى حوارى القاهرة وأزقتها » هو الفرق بين تخطيط الخطط ، وترك المسائل للحظ والنصيب . والحظ كما نعرف متقلب وعاثر .

الأسد الحكيم والفأر المتهور

يحكى فى حديث الزمان وواقع العصر والأوان ، أن فأرا صغيرا نحيلا لايزيد طوله على كف الإنسان ، ذهب ذات يوم إلى الأسد ، وقال له بصوت مرتفع حاول أن يسبغ عليه الخشونة :

أيها الأسد العظيم لقد جئت أتحداك وأنازلك ، وهأنذا أرمى فى وجهك الملكى بقفازى وأدعوك إلى المبارزة والصراع .

كان الأسد ينعم بتعسيلة لطيفة ، أفسدها هذا الفأر المتهور الصغير .

فتح الأسد عينيه ونظر بكسل إلى الفأر وتثاءب الأسد فتلألأت أنيابه عن طولها وعرضها وكشفت عن أطرافها الحادة كالسكين .

نظر الفأر إلى الأسد وتزلزلت مفاصله وسابت أعصابه حين رأى رأسه كلها أصغر من ناب واحد من أنياب الأسد .

فكر الفأر أن هذه الأنياب لو انطبقت على رأسه فسوف تهشمه تماما مثلما تتهشم بندقة هشة تحت أقدام فيل غاضب ، على الرغم من خوف الفأر عاد يقول للأسد :

لماذا لاترد أيها الأسد ، هل أنت خائف ؟

لم يرد الأسد وفكر أنه لو عطس فسوف يموت الفأر متمزقا من الهواء المندفع من أنف الأسد ، كما يموت الإنسان حين تنفجر جواره قنبلة وتؤدى إلى تفريغ الهواء حوله .

عاد الفأر يتحدى الأسد وعاد الأسد يتثاءب . كان الأسد حكيما ففكر قليلا ثم قال للفأر :

اذهب عنى أيها الفأر المهرج فليست بى اليوم رغبة فى المزاح ، إنما الرغبة فى النوم والنعاس . قال الأسد كلماته وتوقع أن يتقهقر الفأر ولكن الفأر زاد انتفاخا وانتعاشا وسار بإعجاب وخيلاء وقال للأسد :

من الذى أدخل فى روعك أننى أمزح ، إننى أدعوك للنزال حقيقة لا مزاحا .

قال الأسد للفأر : هل أكلت عنبا متخمرا فسكرت ؟ هل جننت ؟ اذهب عنى وانج بجلدك فلن أبارزك .

قال الفأر : لماذا ترفض المبارزة ؟

قال الأسد : أقول لك لماذا ، لأننى أسد حكيم .

قال الفأر : أيها الأسد الحكيم دعنى أنهل من حكمتك وأتعلم من سداد رأيك ، دعنى أجلس مجلس التلميذ أمامك ، لماذا رفضت أن تنازلنى ؟

قال الأسد : إن الحكمة ثمرة من الثمرات التى يؤتيها الله لبعض عباده وهى ثمرة فيها خير كثير .

قال الفأر : نعم . . نعم .

قال الأسد : دعنى أهمس فى أذنك بسر ، إننى أعرف عن دنيا السياسة أكثر مما يعرفه الفيل الأميركى والدب الروسى .

قال الفأر : زدنى فهما أفادك الله ومتعك بحكمته .

قال الأسد : لقد دخل الفيل الأميركى الضخم صراعا مع فأر صغير أحمر فى فيتنام ، وكانت النتيجة انسحاب الفيل بغير زلومته وبغير أنيابه العاجية .

أما الدب الروسى فقد دخل فى صراع مع فأر فى أفغانستان ، ولكنه خرج هاربا وترك فراءه وملابسه الداخلية وأسرع ينجو بنفسه ، والعاقل من اتعظ بغيره .

قال الفأر : نعم . . نعم زدنى فهما .

قال الأسد : لو نازلتك وصارعتك وقتلتك فأى شرف لى فى ذلك ولو غلبتنى تكون مصيبة ، اذهب عنى ودعنى أنعس قليلا فى أحضان حكمتى .

ورطة المخابرات الأمريكية

المخابرات الأمريكية فى ورطة .

بتحديد أكثر ، وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التى يطلقون عليها الـ (سى . أى . ايه) فى ورطة .

نشرح لكم الموضوع لنعرف معا مدى مسئولية الوكالة عن الورطة التى وقعت فيها .

هل وقعت فى الورطة نتيجة خطأ من جانبها أو من جانب الورطة نفسها؟

نسأل أولا : ما هى الورطة التى وقعت فيها الوكالة ؟

إن الورطة تتلخص فى سؤال يقول :

لماذا أخفقت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية مرات كثيرة فى التنبؤ بالتغييرات التى وقعت داخل الإمبراطورية السوفييتية الشاسعة .

هذا هو السؤال ، وهو كما نرى سؤال محرج . لقد أصبح معروفا أن وكالة المخابرات المركزية لم تستطع أن تتنبأ بما وقع داخل الإمبراطورية السوفييتية . صحيح أن الوكالة ليست وحدها بدعا فى ذلك ، إن هناك إحدى عشرة وكالة

مخابرات فى أميركا ، ولكن هذه الوكالة المركزية أهمها وصحيح ان الاثنتى عشرة وكالة قد فشلت جميعا فى التنبؤ بما حدث ، ولكن هذا لاينفى خيبة الجميع فى هذا الأمر .

إن كثرة الفاشلين فى مهمة لاتعنى أن المهمة مستحيلة أو أن فشلهم كان أمرا خارجا عن إرادتهم ولا سيطرة لهم عليه .

لانريد أن يفهم القارئ أن وكالة المخابرات المركزية ستحال إلى التقاعد بسبب هذا الفشل . هذا تصور غير وارد .

إن الرئيس الاميركى بوش رجل مخابرات قديم وصلته بالوكالة معروفة ومشهورة ، وهو يعتمد فى قراراته على تقارير الوكالة سواء كانت القضية تتصل بليتوانيا أو تتصل بأميركا اللاتينية . من المعروف أيضا أن الرئيس الأميركى أبلغ وليم ويبستر مدير الوكالة أنه راض جدا عن إنتاج الوكالة .

حدث هذا فى الوقت نفسه الذى قال فيه أحد مستشارى بوش للسياسة الخارجية ، إن عمل الوكالة جيد فيما يتعلق بتحليل الاتجاهات ، ولكنه ضعيف فيما يتعلق بالتنبؤ بتوقيت الأحداث المتعلقة بانهيار النظم فى أوروبا الشرقية .

أما وكيل وزارة الدفاع السابق فى عهد ريجان ، فقال عن رجال الوكالة إنهم يجمعون كما هائلا من المعلومات وينسقونها فى صورة ممتازة ، ولكن تنبؤاتهم تأتى مخطئة ولاعلاقة لها بما سيحدث .

هذه هى ورطة الوكالة .

إنها تجمع المعلومات وتحللها ثم تنتهى إلى التنبؤ بشكل خاطئ ، والأصل المفروض أن التنبؤ أهم عمل للوكالة أو المحلل السياسى ، وهكذا فوجئت

الوكالة مع جماهير الناس بما حدث فى أوروبا الشرقية ، كما فوجئت بما حدث فى الاتحاد السوفيتى حين ظهرت البروسترويكا ، وقد راح المدافعون عن الوكالة يلتمسون لها الأعذار باعتمادها على الأقمار الصناعية ووسائل التنصت الاليكترونية ، وقلة اعتمادها على الجواسيس والعملاء السريين وقال بعض المدافعين عنها إن أحدا لم يكن فى إمكانه أن يتنبأ بما حدث فى أوروبا الشرقية أو الاتحاد السوفيتى .

هذا هو الجزء الذى أحب أن أتوقف عنده .

إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يقع ما وقع فى الاتحاد السوفيتى وفى أوروبا الشرقية .

وحين يشاء الله شيئا يدبر أسبابه ويخفى تدبيره .

إن القرآن يحدثنا عن الله تعالى بقوله « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

قال العلماء : المكر هو التدبير فى الخفاء ، وليس كالله أحد يستطيع أن يدبر فى الخفاء ، عندئذ تعمى وكالة المخابرات المركزية ولا ترى شيئا ، وهكذا يظهر الله تعالى آياته للناس ، ويظهر لهم ضعف كثير من الأجهزة التى يخشونها أشد من خشيتهم لله ، ولكن أحدا لايعتبر .

الاشتراكيون والضيق والصديق

أخيرا أعلن الاشتراكيون عن معنى المثل القائل « الصديق عند الضيق » .

وقد أبرز الدكتور حيفا ندوف أشهر المحللين السوفيت هذا المثل فى حديثه الأخير .

وكانت المناسبة لإيراد هذا المثل هو مناشدته أثرياء العرب أن يحولوا جزءا من رءوس أموالهم المودعة فى البنوك الغربية والأمريكية إلى البنوك السوفيتية .

قال المحلل الروسى إنه خلال السنوات العشرين الأخيرة لم يصادف عربيا ـ أيا كان مركزه ـ إلا ووصف الاتحاد السوفيتى بأنه صديق العرب أو حليفهم وعلى رغم ذلك ظل العرب يودعون أموالهم فى بنوك أمريكا وغيرها من الأسهم والأوراق المالية الغربية .

وتقدر هذه الأموال بمئات المليارات من الدولارات . ويرى المحلل الروسى أن واشنطن تمول إسرائيل من هذه الأموال العربية التى تتدفق على بنوكها بسخاء .

وهذه حقيقة يعرفها الاقتصاديون العرب ، ولما كان عهد المجاملات

والخواطر قد انتهى بين العرب والسوفيت ، فإن السوفيت يريدون اليوم التحقق من صدق مشاعر العرب ، ولن يكون هذا إلا بإعمال المثل الشعبى القائل : «إن الصديق يعرف عند الضيق » ، وهو مثل عالمى وليس قاصرا على الاتحاد السوفيتى .

من ألطف ما قاله الخبير السوفيتى إن السوفيت يعرفون تحركات المال العربى ويعرفون حجم رءوس الأموال العربية ويعرفون من أصحابها وفيم يستثمرون ؟ ، وليسوا نائمين على آذانهم كما يظن العرب . لم يقل الخبير هذه الجملة الأخيرة ، ولكن روح كلماته توحى بها ، بل إن حديثه بعد ذلك يدلف إلى ما يمكن اعتباره شكلا من أشكال التهديد ، فقد ألمح إلى أن السياسة العربية تمر حاليا باختبار فى علاقتها بالاتحاد السوفيتى ، حيث ستتحدد حسابات القيادة السوفيتية تجاه العرب وفق مساعدة العرب لموسكو فى أزمتها الاقتصادية .

ولما كانت أهم قضية عربية مع الاتحاد السوفيتى هى هجرة اليهود السوفيت إلى إسرائيل ، فإذا تقاعس العرب عن مساندة صديقهم الاتحاد السوفيتى فسيرفع الاتحاد السوفيتى شعارا يقول ـ الأموال العربية والعملات الصعبة مقابل الحد من الهجرة .

واضح من كلام المحلل الروسى أن الأزمة الاقتصادية فى روسيا هى أهم قضية مطروحة فى الساحة ، ويعترف المسئولون السوفيت أن الأزمة استحكمت إلى الحد الذى جعل الحكومة تسحب من احتياطيات العملة الصعبة لتسدد ديونها للمصدرين الغربيين . والحق أن المرء ليحزن حين تأخذ الضائقة شعبا بأكمله ، نتيجة لإلحاد قادته وسياساتهم الاقتصادية الخاطئة ، على أن هذا كله فى طريقه إلى الانتهاء والتآكل ، وها هو الاتحاد السوفيتى يعود إلى الطريق

الصحيح ويعترف بالأديان ويقر حرية المواطنين فى الاعتقاد ، ويبدأ فى علاج اقتصاده ، وهذا كله شىء رائع ويستحق وقفة من العرب مع صديقهم الذى طالما وقف معهم .

والحق أن تقديرنا للشعب الروسى هو تقدير بالغ ، إن شعبا أنجب تولستوى ودوستويفسكى وتشيخوف وبوشكين وسولوخوف وغيرهم من عباقرة الرواية والقصة والشعر والسياسية مثل جورباتشوف ، يستحق هذا الشعب العظيم أن يقف بجواره كل الأصدقاء ، ويستحق كل عون من الأثرياء العرب على المستوى الإنسانى وبغض النظر عن هجرة اليهود .

المشكلة كلها أن عدد الذين هاجروا من اليهود السوفيت إلى إسرائيل منذ عامين كان ضخما فى حد ذاته « ربع مليون مهاجر » وهذا أمر يهدد العرب مثلما يهدد الفلسطينيين .

كيف سمح الصديق السوفيتى بهذا ، والأصل أن الصديق يعرف عند الضيق ، هل ينتظر الاتحاد السوفيتى حتى تخنق إسرائيل الشعب الفلسطينى كله ثم يتدخل .

الجمال والقبح

الجمال والقبح مسألتان نسبيتان . فى العصر اليونانى مثلا كانت افروديت هى نموذج الجمال البشرى ، وفى عصرنا أصبح على افروديت أن تفقد ثلاثين أو أربعين كيلو جرام من وزنها ليمكن اعتبارها جميلة .

وقديما كانت كلمة الشاعر « زرق العيون عليها أوجه سود » تشير إلى لون من ألوان القبح ، ولكن وجها أسمر تطل منه عينان زرقاوان صار يحسب مع الجمال فى عصرنا .

وقديما وصف الشاعر نموذجا سائدا للجمال فى عصره فقال :

غراء فرعاء مصقول عوارضها .

تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحلُ .

يريد الشاعر أن يقول إن حبيبته طولها كطول الباب وعرضها كعرض الشباك وهى فى حجم فيل متوسط الحجم ، ولهذا السبب فهى تمشى ببطء شديد من فرط سمنتها وجمالها وكأن لسان حالها يقول :

يا أرض اتهدى ، ما عليكى قدى .

هذه الصورة الجميلة فى عصر الشاعر تبدو لنا اليوم صورة فكاهية لرفيعة هانم ، وهو نموذج كاريكاتيرى استخدمه رسامو الكاريكاتير للسخرية من السمنة .

ومع اعترافنا بنسبية الجمال وتغيره من عصر إلى عصر ، ومن زمن إلى زمن وهى ظاهرة يعرفها الشرق ، ونقصد بذلك اعتياد الناس على القبح . حتى ينكسر قبحه ويراه الناس شيئا عاديا ، ومع الوقت يصير شيئا مقبولا .

كان لنا صديق يعيش فى أوروبا ، وكان صديقنا هذا ارستقراطى النزعة . وأيضا ارستقراطى المشاعر .

كان يعشق الجمال وينفر من القبح ويتفاداه ، واضطره العمل إلى المجىء إلى مصر والبقاء فيها بعد عشرين عاما عاشها فى حى هادئ فى قلب لندن .

فى الفترة الأولى من مجيئه إلى مصر كان يشكو من ضجيج الشارع وكم التلوث الذى تصدره السيارات التى انخرب موتورها وصار يخرج سحابة سوداء من الشكمان .

وكان صاحبنا يشكو أنه اعتاد على رفع صوته إذا تحدث لأحد فى الشارع لأن صوت الشارع أعلى من صوت صاحبه هو . .

وظل صاحبنا يشكو ويثرثر ويتحدث حتى خشينا على صحته أن تتأثر أو تتلف .

ومرت الأيام والشهور وصاحبنا يزداد حنقا وغضبا ، وقال أحد أصدقائنا إنه سيتأقلم ، ولكن الأمر بدا أكبر من التأقلم .

وذات يوم فوجئنا بصاحبنا الساخط وقد ثاب إلى هدوئه وسكينته ، لم يعد يشكو ولا عاد يتذمر ولا صار يحنق على شىء .

وبدأنا ندرس حالته ، واتضح أنه قد يئس من إصلاح الخلل واعتاد على وجود القبح .

وحين يعتاد المرء على القبح يبدأ فى رؤيته من منظور جديد ، ومع الوقت ينسحب إحساسه بالنفور ويحل بدلا منه إحساس بالاستسلام لهذا القدر المقدور .

ومع الوقت لا يعود القبح يجرح مشاعر الإنسان ، إنما يصير جزءا من حياته اليومية .

ومع الوقت لا يصير القبح قبحا ، إنما هو أمر واقع ، وليس بشعا كما كنا نتصوره من قبل .

وهكذا أصاب المرض الخفى صديقنا بعد طول شفاء ، فمرض به ونحن نظنه قد شفى .

الناس والنقود

كان اختراع النقود مأساة إنسانية بالغة ، فمنذ ذلك التاريخ البعيد المشئوم انقسم الناس إلى فقراء وأغنياء ، وعرف الشقاء طريقه إلى الفئتين معا .

الأغنياء لأنهم يريدون أكثر . . .

والفقراء لأنهم لا يجدون أكثر . . .

وقديما ، فى عصر الكهوف ، حين كان الإنسان البدائى يعيش فى المغارات والكهوف ، كان يخرج إذا حانت ساعة الغداء بحثا عن فريسة ، وكان الثور يخرج فى نفس الساعة بحثا عن غداء ، وكان كل منهما يعود إلى كهفه ومعه طعام الغداء ، لم تكن هناك مشكلة .

ظلت الدنيا رخاء وهادئة طوال العصر البدائى ، وطوال زمن المقايضة فلما ظهرت النقود بدأت المشاكل .

فى البداية كانت النقود من معدنين ، هما الذهب والفضة ، ونجح معدن الذهب فى الكشف عن معادن الناس وتعريتهم ، وكان نجاحه ساحقا وجاء فى الترتيب بعده معدن الفضة ، وما زال هذا الترتيب معمولا به فى قلوب الناس وإن بطل العمل به فى البنوك .

والنقود كلمة تبدو بسيطة ، ولكنها فى حقيقة الأمر معقدة ، وتؤثر النقود على كل شىء ، بما فى ذلك صوت الإنسان ذاته ، حين يكون غنيا يكون صوته هادئا وقويا ومسموعا حتى لو صمت ، فإذا افتقر الإنسان انخفض صوته وأصبح رفيعا لايكاد يبين ، فإذا ازداد فقره وبلغ حد الإفلاس انحاش صوته واحتجب ، وصار يصدر همهمات لا تدل على شىء ولا تشير إلى شىء وليس الصوت وحده الذى يتأثر بالنقود ، إنما تؤثر النقود على فرح الإنسان وشقائه فيدور الفرح والشقاء وجودا وعدما حول النقود .

ولقد حاول ارسطو فى كثير من محاوراته أن يقرل لتلاميذه إن الفرح شىء والسعادة شىء آخر ، ويمكن للنقود أن تخلق الفرح ، ولكنها لا تستطيع صنع السعادة .

ولكن عباراته فى هذا المجال كانت تُقَاطع من زوجته التى كانت تدلق عليه جردل الماء ، وهى تقهقه حول خيبته فى تحصيل النقود .

والنقود لا تميل إلى الفلاسفة أو الحكماء ، ومن هنا لم يكسب سقراط طوال حياته الخصبة أكثر من دريهمات قليلة أنفقها على شراء الخبز حتى يستطيع أن يستمر فى محاوراته ، على حين أن الذين طبعوا محاوراته ونشروها بعد ذلك كسبوا من ورائها آلاف الجنيهات .

والنقود صنم عظيم ، وعلى رغم تعدد الأصنام والأوثان التى انخدعت فيها البشرية ، يحتل الذهب مركزه الممتاز كصنم لا ينافسه صنم آخر .

ولقد تسللت النقود إلى الفن ، فأصبحت معظم تمثيليات التلفاز ومواضيع المسرح والسينما تدور حول النقود .

كيف يمكن الحصول عليها لا عن طريق العمل ، وإنما عن طريق

اقتراضها إلى الأبد ، أو طباعتها ، أو الانقضاض على أحد البنوك المكدسة وتعبئة الجوالات منها .

ولقد تغير شكل النقود اليوم ، وأصبحت أوراقا ملونة ولم تعد تصنع من الذهب أو الفضة ، وعلى رغم ذلك لم يزل لها نفوذها القديم ومازالت تتربع فوق عرش الأوثان المعاصرة . الشىء المؤكد فى النقود أن المرء لا يستطيع حملها معه بعد الموت ، ولا يستطيع التعامل بها فى العالم الآخر .

الثابتون على المبدأ

الثبات على المبدأ فضيلة أمرت بها كل الأعراف الإنسانية الطيبة .

أحيانا يتحول الثبات على المبدأ إلى حماقة تبدو جوارها حماقة جحا حكمة بالغة .

ولنتصور الآن المشهد التالى :

إن مختار القرية أو عمدتها يركب دابته ويعبر بها شريط السكك الحديدية بينما القطار يصفر من بعيد ويقترب . فى هذه اللحظة حرنت الدابة وقررت الثبات على المبدأ والبقاء فى مكانها وراح صاحبها يستحثها على السير لكنها لزمت مكانها .

ما الذى يعنيه هذا الموقف ؟

أيكون حكيما من يثبت على موقف كهذا الموقف ؟

نحن نترك الجواب لفطنة القارئ مع القول سلفا إن الأمرلا يحتاج لفطنة .

ارتسمت فى ذهنى هذه الصورة ، وأنا أتأمل تداعيات مايجرى فى العالم الشيوعى بعد انهيار القلعة الرئيسية وتحول موسكو من النقيض إلى النقيض .

إن هناك دولا مازالت ثابتة على المبدأ كالصين وكوريا الشمالية والبانيا .

إن أحدا فى العالم لم ينس بعد أحداث ميدان السلام السماوى فى بكين .

لقد سحقت دبابات تنتمى لجيش الشعب أجساد الشعب الصينى . بمثقفيه وشبابه الجامعى ونسائه ، وقيل فى تبرير المذبحة إن النظام مهدد بهذا الحشد الذى يزيد على مليون ويفترش أرض ميدان السلام السماوى ويمسك بالزهور فى أيديه ويطالب بمزيد من الحرية والديمقراطية ، والحق أن الشعب الصينى كان هو أول الشعوب الشيوعية التى تحركت نحو الحرية ، وكان أول الشعوب التى دفعت مقدما ـ من دم أبنائها ـ ثمن هذه الحرية .

أما الحكومة الصينية على الرغم من كل ما حدث فى أوروبا الشرقية ومثلها دولة كوريا الشمالية دولة الزعيم المحبوب كيم ايل سونغ وهو زعيم محبوب أعد ابنه ليتولى منصب الحكم بعده ، وكانت هذه إضافة إلى النظام الشيوعى وتطويرا له بروح خفيف من نظام الوراثة الملكية .

أما الدولة الثالثة التى ثبتت على مبدأ النظام الشيوعى فهى ألبانيا ، وهى دولة صغيرة وليست متقدمة ويشبه موقفها موقف الأطرش فى الزفة .

إن الأطرش يسير ثابت الجنان مكتمل الوقار فى الزفة ، إنه لايسمع الأنغام ليرقص معها ، ولاتزعجه أو تضايقه هذه النغمات النشاز التى تصدر من الزفة ومن ثم يسير الأطرش بكامل وقاره فى أى زفة .

إن الدنيا تفور وتمور حول ألبانيا ، ولكن ألبانيا نفسها فى حالة من السكينة والثبات على المبدأ .

والحق أن هذه الدنيا غريبة .

إن الأسماء والكلمات لا تعنى فيها شيئا ذا بال ، إن أنظمة قامت باسم

الكادحين وعاش زعماؤها عيشة الأباطرة وتركوا الكادحين يكدحون على حريتهم .

إن الوعى يوشك أن يعم العالم ولم تعد الشعوب ترضى أن تعيش بالكلمات وتتغذى بالشعارات وتفطر على الهتاف للنظام ، فى الوقت نفسه الذى يعيش فيه القادة كالملوك ويعيش الشعب كالسائمة .

وأطرف ما فى خريطة العالم السياسية هذه الدول التى ثبتت على المبدأ بينما القطار يصفر وهو يتجه نحوها .

الحب الصيفى

لا يكاد الصيف يقبل حتى تفوح فى أنفى رائحة شياط قلب يحترق .

إننى أفتش داخلى أولا عن هذا القلب الذى يحترق فلا أعثر عليه . لأفتش خارجى إذن .

هل هو قلب الصيف أم قلب شباب له ذكرياته مع الصيف ، أم هو مزيج من رائحة البحر وهذا الإحساس بالوقوع فى هوى الحب قبل معرفة الحبيب .

لست أعرف على وجه التحديد ، وربما اقتربنا من المعرفة إذا حللنا الموقف .

إن الحب الصيفى هو هذا الحب الذى يقع فى الصيف ، وأكثر ما يقع فى الشواطئ البحرية ، حيث تمتد العين إلى مالا نهاية وحيث يفسح انفساح الرؤية مجالا لميلاد الحلم .

ومشكلة الحب الصيفى على الرغم من كل حلاوته أنه يشبه البرتقال الصيفى وهو برتقال لا يشتهر بالحلاوة ولايظهر إلا فى الصيف ، ووجه الشبه بين الحب الصيفى والبرتقال الصيفى يتضح فى الأمرين التاليين .

١ ـ التأقيت ، إن الحب الصيفى مؤقت ، والبرتقال الصيفى مؤقت . والتأقيت يفسد الزواج من الناحية الشرعية ويفسد الحب من الناحية العرفية وأى عاشقة تقبل بقصة حب تنتهى بنهاية الصيف ؟ .

٢ ـ ليس الوقت وحده هو الذى يفسد قصص الحب الصيفى ، هناك عامل آخر هو غياب طعم البرتقال عن البرتقال الصيفى وغياب طعم الحب عن قصص الحب الصيفى .

إن الحب سر من أسرار الإنسان .

وليس فى الصيف أسرار ، وإنما هو العرى على الشواطئ والعرى يصرف ذوى القلوب عن النظر ، وهؤلاء هم الذين يحبون فى نهاية الأمر .

إن الصيف ينتمى لابيقور عادة أكثر مما ينتمى لسقراط أو افلاطون . وقد كان ابيقور فيلسوفا يونانيا يرى أن اللذة هى طموح الإنسان الأكبر . وبالتالى فقد تم ترتيبها ليكون مكانها قبل الفضيلة ، بل إنها لتتحول إلى معيار للفضيلة فيصير ما يلذ الإنسان خيرا فى ذاته .

وهذا يشبه من يجعل تقلبات هواه نصوصا قانونية يسير على هداها .

والحب الصيفى ـ باختصار ـ هو حب جاء فى غير أوانه تماما كالبرتقال الصيفى ، ولهذا السبب يغلب عليه الطعم الماسخ حتى ليبدو بلا طعم .

ومعظم قصص الحب الأولى تقع فى موسم الصيف إذ تبعث الشمس بحرارتها فتلهب الدماء وحيث يبدو الموج الأزرق مثل حلم ممتد يتنفس ويبحث عن شكل وحيث رائحة اليود والبحر والمغامرة .

ويبدأ العشاق فى نقل صور أحبائهم وتشكيلها داخل نفوسهم ويرسم كل واحد منهم للحبيبة أو الحبيب صورة لا علاقة لها بأيهما ، صورة

داخلية بحتة تجمع بين حلمنا فى الحب وصفات الكمال التى لا تتوفر لغير الخالق .

ومع الوقت تنسحب الحرارة ويبدأ الشتاء فى الظهور مع هذه السحب المتراكمة وينفض سوق الحب ويعود الأحباء إلى ديارهم ، وفى أفواههم طعم البرتقال الصيفى ، وهو طعم أقرب مايكون لإثارة « البواخة والسأم » منه إلى إثارة الحزن الفاجع .

وتسقط الشمس فى البحر ويلملم البحر بقايا القلوب التى تحطمت أثناء الصيف .

اليابان تزرع القمر

قل لى كيف تنظر إلى القمر ؟ وماذا تقول له ؟ وسوف أقول لك من أنت ؟

إن الإنسان المصرى ينظر إلى القمر ويقول : « يا امه القمر عا الباب » أو يغنى قائلا : « قمر له ليالى ، يطلع لم يبالى ، عالبستان ينور » .

ويحلو للشعب المصرى أن يقول فى وصف المرأة الجميلة إن وجهها كالقمر كما يحلو له أن يصف حاجبى المرأة بأنهما كالهلال ، وهذه المشتقات القمرية كلها ترجع فى أساسها إلى الثقافة العربية التى كانت تنظر إلى القمر باعتباره جمالا يمكن تشبيه المرأة به ، وهاهو امرؤ القيس يحدثنا عن مغامرة سريعة له فى الحب .

كان امرؤ القيس يلعب الشطرنج مع حبيبته إذا غلبها قبلها ، وإذا غلبته قبلته ، وهو يصف لنا هذا المشهد التاريخى ويحشر فيه القمر كعادة الشعراء . يقول الشاعر :

أقبل ثغرا كالهلال إذا أفل　　　وقد كان لعبى كل دست بقبلة

إنه يصف فم حبيبته بأنه مثل هلال رفيع فى طريقه للتلاشى والأفول .

يريد أن يقول أنه كالقمر . نفهم من هذا أن الشعب العربى عموما شعب عاطفى ، إنه يربط بين تنائى القمر وبعد مسافته ، وابتعاد الحبيبة التى رحلت واستطالت بينهما المسافات ، وهو يربط بين جبين القمر الفضى الشاحب وجبين الحبيبة الفضى الشاحب .

وكل هذه النظرات نظرات عاطفية .

والآن ندخل فى الموضوع الأصلى ونسأل :

كيف ينظر اليابانيون إلى القمر ؟

« زمان » ، حين كانت الدنيا تتكون من الناس الطيبين . كان اليابانيون يتغزلون فى القمر وينشدون فيه الأشعار ، أما اليوم فينظر اليابانيون إلى القمر نظرة مختلفة تماما .

نظرة يسمونها فى اليابان نظرة علمية ديناميكية مستقبلية ، وهذه العبارة تنطوى على مجموعة من المعانى .

إنها تعنى ، كيف يستفيدون من القمر ؟ أو كيف يبيعونه للعالم ؟ باختصار إنهم ينظرون إلى القمر نظرة رجل الأعمال إلى مشروع لابد من دراسة جدواه .

إن الشركات اليابانية المتخصصة بالاشتراك مع وزارتى التجارة والصناعة اليابانية قاموا بدراسة عن إمكان إقامة مستعمرة قمرية . تستخدم كمصنع لاستخراج العناصر النادرة فى القمر ، وتستخدم كقاعدة أولية تتجه إلى المريخ .

ومنذ سنوات بدأت الدراسة وعمل فيها ٢٥ مهندسا ، وخصص لها ١٥ مليون دولار ، وخصصت الحكومة اليابانية ـ فى بداية غزوها للفضاء ـ مبلغ ٢ بليون دولار لإنشاء محطة فضاء مدارية أصبحت جاهزة فى نهاية عام ١٩٩١ .

وتعد اليابان لإقامة أول فندق فضائى خلال الأعوام الثلاثين المقبلة . وسيتكون الفندق من ٤٦ حجرة ، ويأخذ مدارا على ارتفاع ٢٨١ ميلا من الأرض ويصل أجر الإقامة فيه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع إلى ١١٠ آلاف دولار. ويسعى اليابانيون إلى تأسيس أول قاعدة على القمر ، ويفكرون فى الزراعة السريعة النمو فى منطقة انعدام الجاذبية فى المحطات الفضائية .

باختصار يمكن القول إن أميركا كانت أسبق الدول صعودا إلى القمر . ولكن اليابان ستكون أول الدول استغلالا للقمر ، والملاحظ هذا فى صناعة السيارات وصناعة السفن وصناعة الأجهزة التى تعتمد على التكنولوجيا المتقدمة .

وهكذا نغنى نحن للقمر ، بينما تخطط اليابان لزراعته واستغلاله .

أمريكا والحرية !

أمريكا هى بلد الحرية .

إذا كنت لاتصدق فاذهب إلى ميناء نيويورك . إن هناك تمثالا عظيما يقف عاليا فى مدخل الميناء ، فتاة جميلة تحمل فى يدها مشعل الحرية .

صحيح أن المشعل ليس منيرا ، وصحيح أن هناك عدة إصلاحات فى التمثال الذى آل للسقوط ، ولكن هذا كله لايخدش الرمز الذى تشير إليه حاملة المشعل ولايؤثر فى دلالاته .

والحرية فى أمريكا أنواع وألوان وأشكال .

إن التفكير حر هناك ، والسوق حر ، والاقتصاد حر ، والاختراع والابتكار والاكتشاف حر ، وأينما توجهت وجدت أمامك أرضا بكرا للحرية ، وهى أرض لاتحتاج لدخولها إلا بجواز سفر بسيط هو الدولار .

وبقدر عدد الدولارات معك يزيد حظك من الحرية ، فإذا لم يكن معك أى دولار ، فأنت حر أيضا فى التسول ، ولقد كانت حرية التسول إحدى الحريات التى أطلقت حديثا .

والشعب الأمريكى شعب يعشق الحرية ، وهو أكثر شعب يلجأ إلى المحكمة الدستورية العليا لتقنين حياته .

واجه محافظ ولاية اريزونا مشكلة فى الفترة الأخيرة ، لاحظ الرجل أن زحف المتحدثين بالاسبانية يزداد ، لاحظ أن القادمين من الجنوب يزدادون . وهم جميعا يتحدثون اللغة الاسبانية ، ومع زيادة عددهم بدأت مطالبهم فى الزيادة .

وهكذا طالب هؤلاء باستخدام اللغة الاسبانية فى بعض المعاملات الحكومية ، كما يحدث فى ولاية نيويورك وولاية كاليفورنيا .

ولاحظ المحافظ الأمريكى أن اللغة الانكليزية توشك أن تذهب إلى غياهب النسيان .

وهكذا قام المحافظ بإصدار قرار باعتبار اللغة الانكليزية هى اللغة الرسمية للولاية .

لم يعجب تصرف المحافظ سكان الولاية ، قالوا ماهذا الكلام الفارغ ؟ نحن نحب اللغة الانكليزية ، ولكننا نحب الحرية أكثر وهكذا أقام بعض السكان دعوى أمام المحكمة الدستورية العليا ، ونظرت المحكمة فى قرار محافظ الولاية واعتبرته مخالفا للدستور الأمريكى وقامت بإلغائه .

وهكذا عادت حرية الكلام لأى لغة يختارها المواطن الأمريكى ، كما أطلقت فى الولاية نفسها حرية التسول وحرية إحراق العلم الأمريكى تعبيرا عن الاحتجاج أو الغضب .

والحرية فى أمريكا لاتتورع عن شىء ولايقف أمامها شىء . منذ عامين قامت تظاهرة للشواذ فى مدينة لوس انجليس ، وكانوا يطالبون بحرية الشذوذ.

ويمارس الشعب الأمريكى حريته فى الخير مثلما يمارسها فى الشر . وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال عن الآثار الجانبية للحرية .

يمكن مثلا أن يقال إن ٨٠ فى المائة من الكوكايين الذى يستهلك فى العالم يستهلك فى أمريكا وحدها .

ويمكن مثلا أن يقال إن الحرية الجنسية التى أطلقت من عقالها كالوحش هى المسئول الأول عن مرض الإيدز أو نقص المناعة .

على الرغم من هذا كله يبقى أن يقال إن الجرائم التى تقع بسبب الحرية هى جرائم تنبع من سوء اختيار الإنسان واستغلاله للحرية ، ولاتنبع من الحرية وجرائم يوم واحد من أيام الاستبداد فى الشرق أثقل فى الميزان من جرائم الشعب الأمريكى بسبب الحرية فى عام .

كائنات فى الفضاء

قرأت الخبر وقلت فى نفسى : لاحول ولاقوة إلا بالله ، إن المثل العامى المصرى يقول « إن رزق الهبل يقع عادة على المجانين » ، أيضا يقول مثل عامى آخر « اللى معاه قرش محيره ، يشترى حمام ويطيره » .

ويبدو أن المثل قد انطبق على وكالة « ناسا » الأمريكية لبحوث الفضاء .

قال الخبر إن الوكالة قد خصصت مبلغ ١٠٠ مليون دولار من موازنتها على امتداد السنوات المقبلة للبحث عن وجود كائنات حية ذات مستوى من الذكاء فى الفضاء الخارجى .

ستقوم الوكالة ببناء طبق طائر مزود برادار متخصص لاكتشاف وجود أصوات أو كائنات يمكن أن يستدل منها على عنوان أى حضارة أخرى فى المجرة .

سيعمل فى خدمة الطبق جهاز استقبال ذرى يستطيع تحليل الموجات الصوتية الصادرة عن ١٤ مليون موجة إذاعية ، بحثا عن أى إشارات خاصة بكائنات ذكية ، ويقدر العلماء أن هناك أكثر من عشرة آلاف حضارة متقدمة فى طريق المجرة .

المشكلة كلها ـ لو صدقنا هذا الاحتمال ـ هى بعد هذه الحضارات عنا بعدا سحيقا يجعل الاتصال بها مسألة مستبعدة أو غير ممكنة الحدوث فى الوقت الحاضر .

فكرت فى المائة مليون جنيه التى ستنفقها وكالة الفضاء على المشروع .

وحرت وحار دليلى فى الأمر .

ماذا يقول المرء لوكالة الفضاء ؟ هل يقول لها ما قال المتنبى لسيف الدولة :

ابا المسك هل فى الكاس فضل أناله

فإنى أغنى منذ حين وتشرب .

هل نقول لها إن البيت إذا احتاج للزيت صار الزيت حراما على المسجد .

لن تفهم وكالة الفضاء هذا المنطق لابتعاده عن مجال الفضاء واقترابه من مجال التسول . هل نقول للوكالة : لماذا تنفقون كل هذا المبلغ لمحاولة الاتصال بكائنات ذكية تحاول الاتصال بكم ، والسلام عليكم ، وهى تحتاج للمائة مليون دولار التى ستشترون بها حماما وتطيرونه فى الجو .

وإذا كنتم فى حاجة ماسة لمن يرسل إليكم إشارات عاقلة ويتكلم بلغات غير مألوفة فعندنا فى مصر من هو على استعداد لأن يرسل إليكم إشارات عاقلة ، ويتكلم بلغات لم تسمعوا عنها من قبل .

عندنا فى مصر لغة للصعايدة ولغة للبحاروة ، وهناك من يتكلم العربية ولكنك لاتميز من كلامه شيئا ، وعندنا لغة الدواوين الحكومية ولغة للشارع . ولغة لأحاديث الساسة . واللغات موجودة والإشارات كثيرة ، ولكن قليل الحظ يجد العظام فى الكرشة .

ماذا يقول المرء . إن الكرة الأرضية تضم مناطق يهلك فيها آلاف الأطفال من الجوع ، وهناك مناطق أصابها الجفاف وأمسى يهدد الأحياء جميعا بالفناء .

وثلث سكان العالم ينطبق عليهم وصف سوء التغذية ، وهو سوء يؤدى بهم إلى الأمراض والإشراف على الهلاك ، وفى الوقت نفسه ترصد الدول الكبرى بلايين الدولارات لحرب الفضاء واستكشاف الفضاء والبحث عن إشارات فى الفضاء .

بينما يتأمل جيران الدولة التى تبحث فى الفضاء عن أصوات وإشارات أى أصوات أو إشارة لكسرة من الخبز أو شربة من الماء .

الرفيـق لينيـن

يعتبر الرفيق لينين هو مهندس الثورة الروسية ، كما يعتبر مؤسس دولة الاتحاد السوفيتى التى قامت على أنقاض القياصرة ويحتل لينين مكانة خاصة جدا فى الثورة الشيوعية ، فهى تنسب إليه وإلى ماركس ، فيقولون الماركسية اللينينية . وتحتل صور لينين مكانها فى جميع عواصم الجمهوريات السوفيتية وهى صور صنعت من الورق ، أو صنعت من القماش ، ويبلغ حجم الصورة أحيانا بناية طولها عشرون طابقا ، أو ثلاثون . وتغطى الصورة البناية من أولها إلى آخرها ، أما تماثيله فهى الأخرى تحتل جميع العواصم والمدن الكبرى فى الجمهوريات .

وترتفع التماثيل ارتفاعا شاهقا حتى لتهيمن على المدينة ويراعى فيها أن تحتل أعلى قمة فيها ، وحين مات لينين ، تم تحنيط جسده ووضع فى قلب مدينة موسكو ليكون مزارا مفتوحا للناس على امتداد النهار والليل . وتبلغ الطوابير التى تقف فى انتظار زيارة لينين كيلومترات طويلة .

وهكذا عومل الرفيق لينين معاملة الأولياء ومشايخ الطرق الصوفية بعد وفاته ، فأصبح مزارا يقصده الناس ويلتمسون منه البركة والعون .

هذا ما كان من أمر لينين بعد وفاته على مستوى الصور والتماثيل ، أما وجوده فى أحاديث القادة الشيوعيين والمنظرين والناس ، فكان أكبر من وجوده فى عالمى التماثيل والصور .

لقد كان لزاما وحتما مؤكدا أن يبدأ حديث أى زعيم سوفيتى بتحية لينين والسلام عليه واجتزاء بعض كلماته والبداية بها فى الحديث أو إقامة الحديث على أساسها ، كان هذا حتمية تاريخية كما يقول اليساريون .

كانت كلمات لينين فى المجتمع وفى الاقتصاد وفى السياسة وفى المشكلات كلمات لازمة وضرورية لأى خطبة رسمية ، وكان من الأمور العادية أن يذكر لينين فى أكثر من موضع وبأكثر من صورة .

ولنفترض أن الحديث كان يجرى عن الجو ، وكان الجو نسيما عليلا . هنا لا بأس من القول بأن لينين قال إن الجو اللطيف يدفع إلى العمل بنشاط أكثر وإن هذا واحد من منجزات الثورة الشيوعية .

من هنا ، كان أمرا يلفت النظر أن خطبة ألقاها جورباتشوف حديثا أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى لم يرد فيها اسم لينين مرة واحدة ، ولقد أكد المراقبون أن تجاهل ذكر لينين لا يمكن أن يكون صدفة ، أو نتيجة لسهو أو نسيان أو خطأ .

لقد ظل اسم لينين يمثل القاسم المشترك الأعظم فى كل خطابات الساسة السوفيت ، وحتى البيريسترويكا التى قدمها جورباتشوف وكانت فى حقيقتها عدولا كاملا عن سياسة لينين ، حتى هذه قدمت بوصفها تصحيحا لمسار اللينينية وتطبيقا لروحها . كيف لم يذكر الزعيم السوفيتى اسم لينين مرة واحدة؟

هذا هو السؤال الذى حير الكثيرين وقدمت بشأنه اقتراحات كثيرة ، كان أهمها ماذكره صحافى سوفيتى عن التظاهرات المحتشدة التى خرجت فى الميدان الأحمر وأحاطت باسوار الكرملين عشية الاجتماع ، وكانت تحمل لافتات تقول: « أين تقف ياجورباتشوف » ولافتات أخرى تقول : « ٧٠ عاما فى طريق اللاشىء » إشارة إلى تطبيق الشيوعية ٧٠ عاما وكانت النتيجة لاشىء . ولقد شاهد جورباتشوف هذه اللافتات ، وهو فى طريقه لإلقاء خطابه ، ومن ثم أدار ظهره للينين للمرة الأولى ، وربما الأخيرة .

فــرح .. ولكــن !

قال بيدبا الفيلسوف لدبشليم الملك : كل سنة وأنت طيب يامولاى .

قال دبشليم الملك : وانت طيب يابيدبا . . هناك ملاحظة أرجو أن تفسرها لى بوصفك فيلسوفا .

قال بيدبا : أفسرها يامولاى إن شاء الله تفسيرا يرضيك ويشرح صدرك .

قال دبشليم : ليس المهم أن ينشرح صدرى المهم أن ينشرح صدر الحقيقة لتفسيرك .

قال بيدبا : لقد طق صدر الحقيقة يامولاى منذ عصور مضت هات سؤالك .

قال دبشليم الملك : يابيدبا . . لماذا تحتشد التليفزيونات فى العالم العربى اذا جاء شهر رمضان ، حتى يتحول الشهر إلى فرح .

قال بيدبا : الشهر فرح يامولاى ورمضان كريم والله أكرم ، وهو موسم كما لا يخفى على نباهة جلالتك .

سأل الملك : موسم لمن يا بيدبا ؟

قال الفيلسوف : موسم للممثلين والمغنين والراقصات والراقصين والفنانين والحلوجية والطرشجية والشحاذين والمحسنين، هو موسم عام شامل يامولاى .

قال الملك : آه موسم عام ، هل هذا أصل شهر رمضان يا بيدبا ، إننى أسألك بذمتك ودينك ؟

قال بيدبا : أصله شىء آخر يا مولاى ، أصله فرح صحيح ، ولكنه فرح علوى ، فرح بنزول القرآن .

سأل الملك : هل هذا فرح عادى يا بيدبا .

قال الفيلسوف : لا يامولاى ، ليس فرحا عاديا ، هذا فرح غير عادى وهو يستوجب احتفالا غير عادى .

قال الملك : لماذا إذن لا نفهم .

ضحك الفيلسوف وقال : لقد أجبت على السؤال بنفسك ؟

نحن لا نفهم ، لأننا لا نفهم .

قال الملك : خسارة ، خسارة كبيرة .

قال الفيلسوف : صدقت يا مولاى وجئت بالحكمة وفصل الخطاب ، إنها خسارة كبيرة .

سأل الملك : من هو المسئول عن هذه الخسارة الكبيرة يا بيدبا .

قال الفيلسوف : الله أعلم يا مولاى .

قال الملك : سبحان الله ، أعرف أن الله أعلم بكل شىء يا بيدبا ، ولكنك تتهرب من السؤال .

قال الفيلسوف : أى سؤال يا مولاى .

قال الملك : إننى أسأل من هو المسئول عن عدم فهم الناس من هو المسئول عن حيرة الناس ، أليس العلماء والفلاسفة هم المسئول الأول عن ذلك ، لا تتنصل من مسئوليتك يابيدبا ولا تراوغنى كما راوغ الثعلب الأسد .

قال بيدبا الفيلسوف : لا تظلمنا يا مولاى ، لقد تحدثنا إلى الناس عن وجوب الاهتمام بالجانب التعبدى من شهر رمضان لأنه هو الأصل والأساس هل تعرف ماذا كان رد الناس .

قال الملك : ماذا كان رد الناس .

قال الفيلسوف : قال الناس يا ناس دعونا نفرح ، ولاتنكدوا علينا ، من الذى حرم الفرح على الناس ؟ هذا موسم وكل سنة وانتم طيبون .

قلنا لهم : هذا موسم للعبادة ، لا للرقص ولا للأكل ولا للفرفشة والتسالى، قال الناس : سنتعبد ونغنى ونرقص ونفرفش ونأكل ، لم يعد الناس يسمعون لقول حكمائهم يا مولاى ، إنما هم يمضون وراء سفهائهم .

قال الملك : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا شىء محزن يا بيدبا . إن صلاح الناس رهن بصلاح أمرائهم وعلمائهم ، فإذا فسدوا فسد كل شىء .

قال بيدبا الفيلسوف : يا مولاى ، من حمل قربة مخرومة فسوف تشر على رأسه .

فنـون الـرعـاع

تنتشر فنون الرعاع فى العالم كله مثلما تنتشر قطرة من الحبر فوق ورقة «نشافة» .

تنتشر هذه الفنون وتتقدم وتحتل الأماكن الأولى وتستولى على اهتمام الجماهير ورعايتهم .

والرعاع هم هذا الجنس العرقى الذى كان يسكن مدينة « رعاعيا » وهى مدينة كانت تنتمى إلى قارة اتلانتس التى غرقت .

ولقد هلك كل أهل اتلانتس تحت الماء باستثناء سكان مدينة « رعاعيا » الذين نجوا عن بكرة أبيهم وتوزعوا بعد ذلك على القارات التى لم تغرق وتوزع معظمهم على دول العالمين الثالث والأول وراحوا يتزوجون وينجبون وامتلأت الدنيا بأغلبية منهم .

والرعاع عند أهل الثقافة هم الدهماء والسوقيون وتتميز فنونهم بالاختلاف والتنوع والصوت العالى الذى يبلغ من درجات علوه أنه يؤثر على أداء وظيفة السمع ويصيب الإنسان بشىء يشبه الصمم .

ويتكلم الرعاع بصوت عال طوال الوقت ، وهم يتكلمون بصوت عال لأنهم يسكنون فى أحياء مزدحمة لايتوقف فيها الضجيج لحظة ، ومن ثم فقد اضطروا لرفع أصواتهم حتى يمكن لهم أن يسمعوا أنفسهم ويسمعهم الآخرون .

وتتميز فنون الرعاع بالفجاجة والركاكة والسماجة حتى لكأنها ريش دجاجة .

ولقد نجح الرعاع فى تقديم فنون يصعب على الباحث المدقق أن يعثر لها على معنى أو شبه معنى .

إن واحدا من شعراء الرعاع كتب يصف شبشب المحبوبة فقال مخاطبا الشبشب ومتمنيا بعد ذلك .

« ياشبشب الهنا ياريتنى كنت أنا » .

وقد تساءل النقاد عن المعنى الكامن فى بطن الشاعر هل يحسد الشبشب على وضعه إذ تدوس فوقه المحبوبة ، أم إنه رأى الشبشب صغيرا على قدم المحبوبة بحيث إن كعبها يدوس فوق الأرض . . . وبالتالى يتشقق ومن هنا جاء حرصه على سد هذه الثغرة .

وليست هذه الأغنية هى الوحيدة التى تشير إلى فنون الرعاع . إن هناك أغان كثيرة لاتعرف وأنت تسمعها هل تسمع أغنية أم تسمع حوارا يدور فى قسم من أقسام الشرطة .

وقد كبرت فنون الرعاع وامتد تأثيرهم وصار لهم مغنون وشعراء وطبالون وزمارون وعازفون وجمهور غفير .

ولم تعد فنون الرعاع موجودة فحسب فى دول العالم الثالث ، إنما امتدت من

العالم الثالث إلى العالم الأول ، ونسيت العالم الثانى وعبرت عليه دون أن تتوقف عنده أو تلتفت إليه .

وبصعود فنون الرعاع إلى دول العالم الأول تغيرت لغتها وتغير لون الراقصين ولكن جوهر الفن بقى واحدا .

استمعت إلى أغنية صاخبة من أغانى الجاز الأمريكية وكانت المغنيات يرقصن بحركات هيستيرية تكشف عن أصل هذا الفن ، وهو فن الزار الذى كان يخرج العفاريت التى تسكن أجساد المدعيات من نسوة الأحياء الشعبية .

كان جمهور المستمعين يتمايل ويهتز يمينا وشمالا بانفعال هائل . وكانت المغنية تقول « أنا احبك أنا اكرهك أنا لا احبك ولا اقدر على بعادك » وهذا هو مضمون المثل العامى المصرى « لا احبك ولا اقدر على بعدك » .

وتتقدم فنون الرعاع ويقدر لها الخبراء بين ثلاث سنوات وثلاث وخمسين سنة تصل بعدها إلى هدفها فى توجيه العالم وصبغه بصبغتها .

مناقشـــات المثقفيــن

تختلف مناقشات المثقفين عن مناقشات غيرهم من عباد الله لأن الناس عادة يتناقشون فى موضوع مادى محدد . . . أما المثقف فيمكن أن يثير حوارا حول فكرة غامضة ومضت فى ذهنه ، وقد يقوده هذا الحوار العميانى إلى رؤية فكرته هو . والعمل والفكر قرينان عند الإنسان العادى ، ولكنهما يختزلان عند المثقف إلى فكر فحسب أو فكر مجرد . . تتوقف على هذا الفكر أمور بالغة الأهمية .

هل تطرح فكرتك من خلال أطر المادية الجدلية أو تطرحها من خلال أطر آليات السوق .

إن كثيرا من الأشياء تتوقف على هذا الطرح ، كما أن كثيرا من الأشياء تتوقف على الأطر ، كما أن كثيرا من النتائج تختلف طبقا لاختلاف المنهج وينبع هذا كله من جوهر المشكلة ، وهى مشكلة تتأثر كثيرا بالمتغيرات الدولية ومتغيرات البيئة المحلية ، وهذا كله يجعل المشكلة مستحيلة الحل .

المسألة ليست سهلة كما ترون .

هذا هو شأن حوار المثقفين أو مناقشاتهم ، إنه صعب ، هو كالشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه .

للمثقفين تقاليد فى الحوار والمناقشات .

أهم هذه التقاليد أن تضع « سدادة » من الشمع فى أذنيك قبل الحوار حتى لا تسمع ما يقوله الآخرون .

عندئذ يمكنك أن تندمج فى الحوار وتصول فيه وتجول . إن الاندماج فى الحوار يكون أمتع حين لا تسمع الحوار .

هذا ما يؤمن به أهل اليمين المتطرف وأهل اليسار المخرف ، وهناك ناجون من أهل اليمين وأهل اليسار مثلما أن هناك من سينجو من أهل الوسط . ولكن هؤلاء جميعا قلة قليلة ، وهذه القلة شىء نادر شاذ والنادر الشاذ لاحكم له .

إنما تجرى معظم حوارات المثقفين على هيئة الحوار الحصاوى . ومجموعات سدت آذانها بالشمع ومضت تتحاور مثل طرش يتكلمون . وهكذا لايردد المتحاورون إلا آراءهم ، ومع استمرارهم فى ترديد آرائهم يبدءون فى تصديقها والإيمان بها والانفعال من أجلها ومنع الآخرين من الاستماع لغيرها .

يتساءل مدير الجلسة من يريد أن يتكلم ؟ فيبدأ جميع الحاضرين فى الكلام . يقول واحد من أهل اليمين الحل هو الإسلام وإطلاق اللحى وتقصير الجلباب . إن جلبابا يجرجر فى الأرض إنما يجرجر فى نار جهنم ، ويقول واحد من أهل اليسار ، بل الحل هو البيريسترويكا . إن الشيوعية تصحح نفسها فماذا لو صححنا أنفسنا وتغذينا معها . ويقول واحد من العدميين لانريد حكومة لقد أثبتت الحكومات فشلها فى جميع الدهور والعصور والأفضل أن يحكم كل إنسان نفسه بنفسه مباشرة .

ويقول واحد من الفوضويين . الحل هو إلغاء القوانين وترك الناس لقانون الغابة .

ويقول واحد من الفاشيين الحل هو ظهور ديكتاتور عادل ، والديكتاتور العادل مثل الفيل الأبيض لا وجود له ، ولكن وجوده نظريا يكفى لحل الإشكالية .

وتشتبك الأصوات وتتداخل ويعلو صوتها وتحتدم ثم تصنع معا سيمفونية مختلفة مضطربة تعبر عن الفوضى أدق تعبير وأكمله .

وينتهى الحوار فيخلع المتحاورون سدادات الشمع من آذانهم ويتصافحون ببرود ثم ينصرفون إلى العشاء وقد استراحت ضمائرهم لجهادهم فى حل مشاكل الإنسانية .

صـورة طبـق الأصـل

وقف الزعيم الشيوعى الأحمر أمام شعبه المريض الأصفر « من الانيميا الحادة » وقال : أيها الشعب الأصفر الشاحب النحيل النبيل ، لقد حان أوان انعتاقك من الذل والقيود ، لا جوع بعد اليوم ، ولا حرمان .

ارتفع صوت تهليل من الشعب وهو يهتف بسقوط الجوع والحرمان . رفع الزعيم يده فسكت الناس . عاد يقول :

أيها الشعب العظيم المسلول ، أيها الشعب التعيس المغلوب على أمره لقد انتهى عهد التعاسة وعصر السل وعصر الذل ، ولا مكان بيننا ـ بعد الآن ـ لأى عتل ، لامكان بيننا إلا للورد والزهور والفل .

هلل الشعب طويلا للزهور والفل ، وعاد الزعيم يرفع يده مشيرا إلى الجماهير أن تصمت وتستمع لتستفيد ، وانصاعت الجماهير للإشارة الساحرة وعادت ترهف آذانها وتستمع .

قال الزعيم بصوت رصين : نحن شعب فقير يعيش فى ظروف صعبة . ونحن فى حاجة لشد الأحزمة على البطون حتى نمر من هذا المأزق الذى هو عنق الزجاجة ، إن لكل زجاجة عنقا ، ولكل عنق زجاجة ، ولكن زجاجتنا

لها ألف عنق وعنق ، وكلما عبرنا عنقا صادفنا العنق الثانى .

نحن أمام تحديات مستمرة .

والآن ، أرونى كيف تشدون الأحزمة على البطون ، لم يكد الزعيم يقول كلمته حتى سارع الشعب كله إلى فتح الجاكتات أو رفع البلوفرات وفك الأحزمة ومحاولة شدها على البطون ، كان الشعب كله قد شد أحزمته إلى آخر خرم فيها ، وعلى رغم ذلك فقد كانت البطون نحيلة ومصفوتة ويمكن شد الأحزمة عليها مرة ثانية ، وعاشرة .

هذه الكلمات السابقة صورة طبق الأصل للخطب التى تنهال من أفواه الطغاة . يستوى فى ذلك أن يكون هؤلاء الطغاة من العالم الثالث أو العالم الثانى ، أيضا يستوى أن يكونوا من أهل اليمين أو أهل اليسار .

إن لغة الطغاة عادة واحدة .

وهى تنطوى على مجموعة من التعبيرات الضخمة ، والوعود الخيالية . وادعاء النزاهة والتقشف ، وفى الوقت نفسه الذى يكون فيه شعب الديكتاتور منشغلا بربط الأحزمة والبحث عن خرم جديد فيها ، فى هذا الوقت يكون الديكتاتور منشغلا بنشل شعبه ، وتنظيف جيوبه وسرقته .

لعلها مصادفة أن كل الطغاة يدخرون من جيوب شعوبهم ، وتصل مدخراتهم أحيانا إلى المليار دولار ، وهى مدخرات تحول عادة إلى بنوك غير بنوك دولهم ، حتى إذا جد الجد ، وثار الشعب واحتد ، أو ثار وارتد ، عندئذ يركب الطاغية متن الريح ويذهب بما ادخره من جيوب الشعب إلى مكان مريح .

هى قصة الطغاة فى كل زمان ومكان . إن العلاقة بين الطغيان والسرقة هى نفسها العلاقة بين الكسل والتثاؤب .

إن أحدهما يفضى إلى الآخر ، لم يكن غريبا إذن أن يكتشف الشعب الرومانى أن زعيمه نجح فى تهريب مليار دولار خارج رومانيا ، فى الوقت نفسه كان الشعب الرومانى يقاسى من ضائقة اقتصادية خانقة . ويعيش فى شتاء رومانيا القاسى دون تدفئة فى البيوت .

ما أغرب الدنيا ، وما أكثر امتلاءها بالبقر البشرى الأبيض ، كيف يصبح الطغاة طغاة ؟ ماهى المدارس التى يتعلمون فيها ؟ ما هى المعاهد التى تتولاهم . إن الشاعر العربى القديم يقول : وحيث لا قطيع لاذئاب .

إن ظهور الذئب يرتبط عادة بظهور الخراف . إن الخراف تظهر أولا على مسرح الأحداث ثم يظهر الذئب بعدها بقليل .

لو تعلمت الشعوب كيف تقول « لا » منذ البداية ، لتغير التاريخ الإنسانى كله ، ولكن أحدا لا يتعلم إلا بعد أن يمر القطار .

الديموقراطيون الحمر

الديمـوقراطية أنواع وألوان وطرق ومذاهب . هناك الديموقراطية التى أشار إليها الشاعر المصرى صلاح جاهين حين قال فى قصيدة غنائية من قصائده :

نفوت على الصحرا تخضر . . .

هذه الكلمة التى غناها فيها بعد عبد الحليم حافظ كانت هى الجزء المسحور الأخضر فى الحقبة الناصرية .

وهناك ديموقراطية حمراء . هى الحرية التى غناها أمير الشعراء أحمد شوقى بك حين قال :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق .

غير أن شوقى بك كان يقصد معنى الجهاد والعمل . وهو معنى غير مقصود عند أهل الديمقراطية الحمراء .

إن الديمقراطية الحمراء ، تشترك مع الديمقراطية الخضراء ، فى أنهما معا يقومان على الكلمة .

أما الفعل فهو بعيد عن القول هنا ، ولا علاقة له به . لقد اكتشف الديمقراطيون الحمر ، كما اكتشف الديموقراطيون الخضر ، أن الكلام سهل أما العمل فصعب .

إن الكلام لا يكلف المرء إلا حركة اللسان والفم ، أما العمل فيحتاج إلى تفكير عقلى وجهد عضلى وعرق وعناء ، ولا أحد يحب العرق والعناء .

ومن أمثلة الديموقراطيين الخضر بعض حكام العالم الثالث ، ومن أمثلة الديموقراطيين الحمر معظم حكام أوروبا الشرقية ، وهم الحكام الذين عناهم الحجاج بقوله حين نزل بغداد . من قوله إنى لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها . كان الحجاج بن يوسف الثقفى جبارا ومن أهل الديموقراطية الحمراء ، رغم أنه كان محبا لخضرة الحدائق وأشجارها التى تتواثب العصافير بين أغصانها بنزق ومرح . . .

فإذا بحثنا عن مثال لأهل الديمقراطية الحمر فسنشير إلى تشاوشيسكو دون عناء .

لقد كان يتحدث دائما عن الفقراء والتعساء والمقهورين والحزانى ، وكان يعد فى حديثه بأن يحول الفقراء إلى أغنياء ، ويحول التعساء إلى سعداء ، أما المقهورون فسيصبحون قاهرين ، أما الحزانى فسيزايلهم الحزن على الفور ويسكن فى قلوبهم عصفور الفرح الأبدى . كان هذا هو ملخص أحاديثه التى بلغت أكثر من ألف حديث وحديث ، مثل ليالى ألف ليلة وليلة ، كان شهريار يطلق البخور المعطر ، ويبدأ عزف القيان والجوارى ، وتدلف إلى غرفة نومه عروسه الجميلة التى اختارها لتتشرف بخدمته هذه الليلة .

أما خارج الغرفة ، فكان مسرور السياف ينتظر العروس حين تخرج من غرفة

نوم شهريار فى الصباح ، وكان ينتظر العروس بسيف ماضٍ لن تحس وهو يقطع به رقبتها أنه يفعل ذلك فعلا .

نحن أمام أنواع مثيرة من الديمقراطية . . .

وهى أنواع حار فيها البحث المنصف كما حار فيها الديالكتيك ، كما حار فيها الأطباء كما حار فيها أهل الكهانة والسحر والعرافة ، غير أن هناك مفتاحا يمكن به فتح الطلاسم ، أو فتح مغاليق هذا السر المستعصى حتى اليوم . . .

هذا المفتاح هو التالى : إذا كان الحاكم الديموقراطى يتحدث عن الديموقراطية بطلاقه ولسان ذرب ، فهذا مؤشر أننا أمام ديموقراطية الكلام وكلام الليل كما تقول لنا حواديت ألف ليلة وليلة هو كلام مدهون بالزبدة فإذا جاء عليه الصباح ساحت الزبدة وساح الكلام .

٣٦٥ حذاء

أنا من هواة الأحذية . . .

كانت جدتى ـ رحمها الله تعالى ـ تقول :

« يعرف الرجل بأناقته وتتمثل أناقة الرجل فى حذائه اللامع وطربوشه الأحمر المكوى » .

من يوم أن سمعت هذه الحكمة ، وأنا أحب الأحذية ، وأدقق النظر فى أرجل الناس ، وأستطيع أن أحدثك عن شخصية الإنسان من شخصية حذائه .

إن اختيار لون الحذاء يشير إلى ذوق صاحبه ، كما أن اختيار شكل الحذاء يشير إلى ميول صاحبه وثقافته ، كما أن رباط الحذاء دليل على أن صاحبه من هواة الارتباط ، فإذا كان الحذاء بغير رباط كان صاحبه من هواة الحرية وعدم الارتباط .

وعلم الأحذية علم واسع ، وكنت أحسب أننى بلغت غاية هذا العلم ومنتهاه ، ولكن ظنى خاب واتضح أننى مبتدئ فى هذا العلم ودخيل عليه .

أقول لكم متى ظننت ما ظننت ، ومتى اكتشفت أننى لست كما ظننت .

كنت أزور انكلترا ذات شتاء ، وكنت أسير فى الطريق حين أحسست أن الجورب الذى أرتدى الحذاء فوقه ابتل ، كانت السماء أمطرت منذ ساعة . وبقيت بعض دموع السحاب فى الطريق قلت لنفسى كيف يبتل الجورب ، وأنا أرتدى الحذاء فوقه ، رفعت قدمى ونظرت إلى الحذاء فوجدته مخروما . أحزننى ذلك وقررت أن أتهور وأشترى عددا من الأحذية يحقق قول جدتى فى أناقة الرجل ، وكان ما كان .

دخلت محلا لبيع الأحذية وقلت للبائع : إن نعل حذائى مثقوب ، وأريد أن أشترى عددا من الأحذية إذ يتعذر بعدها أن أسير بحذاء مثقوب النعل .

قال البائع : أنصحك أن تشترى سبعة أحذية مرة واحدة ، وتلبس كل يوم من أيام الأسبوع حذاء منها ، إن هذا يضمن لك أن يعيش الحذاء معك ٢٠ عاما كاملة .

اشتريت الأحذية ومضى ضميرى يؤنبنى على إسرافى ، وان كان ما يهدئ من روع ضميرى وعدا وعدته لنفسى ألا اشترى بعد ذلك أى حذاء حتى أموت ، وظننت يومئذ أننى بلغت قمة القمم فى عالم الأحذية ، ثم اتضح أننى فى هذا العلم غض غرير .

إن أستاذ هذا العلم دون منازع هو تشاوشيسكو ، انكشفت أسراره بعد أن رحل واتضح أنه كان يشترى حذاء جديدا لكل يوم ، وهذا معناه أنه كان يشترى ٣٦٥ حذاء فى السنة العادية ، ومثل ذلك من البدل ، ولم يكن يلبس البدلة أو الحذاء سوى مرة واحدة ، ويرميهما بعد ذلك ، عملا بقانون التقشف الذى كان يطالب به شعبه .

كان تشاوشيسكو هو أستاذ علم الأحذية ، وواحدا من المترفين الكبار فى عصرنا ، كان يلبس كل يوم حذاء جديدا مرة واحدة ، مرة واحدة فقط ، أى أبهة ، هى أبهة فعلا ، وإن كان فيها قدر من عدم الوفاء ، فإن المرء يجب أن يعتاد على الحذاء حتى يبدأ فى الاستمتاع به ، وهذا الاعتياد لون من ألوان الحب ، وهذا الحب مطلوب حتى فى الأحذية ، ولكن تشاوشيسكو لم يكن عاطفيا مثلنا .

لقد كان لينينيا ماركسيا لا يؤمن بغير المادة والديالكتيك والفعل ، وكان فعله أسود من قلبه ، وكان قلبه أسود من شعره حين كان فى العشرين من عمره ، كان يرتدى الحذاء ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات أو أربعا ثم يخلعه فلا يراه بعد ذلك إلى الابد ، وكذلك الأمر فى ملابسه . هذا يعنى أنه لم يكن يحب أحذيته، وكانت أحذيته لا تحبه هى الأخرى ، كما كانت ملابسه أيضا تمقته ، ولقد عاش الرجل فى جنة الترف وجحيم الكراهية حتى وضعت رصاصة الشعب الرومانى حدا لحياته .

نفق تشاوشيسكو

فى العنوان لبس ، ويستحسن أن نوضح المقصود ، « نفق » هنا بمعنى النفق الذى يشق فى الصخور أو الأرض ، وليس بمعنى نفق أى مات .

يقول شوقى فى مسرحيته « كليوباترا » .

إذا ما نفقــت ومــات الحمــار أبينـك فـرق وبيـن الحمـار ؟

إن شوقى هنا يتحدث عن المعنى الثانى ، معنى الموت ، وليس هذا مقصودنا من العنوان « نفق تشاوشيسكو » إنما المقصود هو الحديث عن النفق الذى شقه جبار رومانيا وحاكمها تحت قصره ، وكان يؤدى إلى قاعدة اجتماعات اللجنـة المركزية للحـزب الشيوعى ، وكان يؤدى فى الوقت نفسه ومن باب سرى آخر إلى مطار تنتظر فيه طائرة معدة للإقلاع على الفور . ليس المهم هو الجهة التى تتوجه إليها الطائرة ، المهم هو استعدادها للإقلاع الفورى ، فكرت فى غرائب الحياة والمخلوقات ، وساءلت نفسى بينى وبين نفسى .

متى يشق الحاكم نفقا فى الأرض ؟

إن الجواب المنطقى للسؤال أن الحاكم يشق نفقا فى الأرض إذا كان لايريد

أن يقيد نفسه بزحام المرور فى المدينة ، أو كان قلبه رقيقا ولايريد تعطيل الطريق بالنسبة للناس ، ليسلكه هو وحده . .

هذان سببان وجيهان لشق نفق ، وهما سببان يمكن إدراجهما تحت سبب جوهرى ، وهو زحام المرور . . .

فهمت الآن لماذا شق تشاوشيسكو نفقا يوصله إلى اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعى . . .

لقد كان الرجل يريد ان يصل بسرعة لاجتماعات الحزب ، لكى يقول لأعضاء الحزب توجيهاته السامية ورغباته المقدسة ، فيقومون هم بدورهم فى قولها بعد ذلك على أساس أنها من بنات أفكارهم . . . كان هذا هو حجم الديمقراطية المتاح فى رومانيا ، وهو حجم تحدثنا الأخبار قبل سقوط تشاوشيسكو بشهر واحد ، أنه كانت هناك انتخابات فى رومانيا ، وقد فاز فيها الحزب كما فاز فيها تشا وشيسكو بنفس النسبة المعتادة ، وهى ٩٩ فى المائة .

لقد كان تشاوشيسكو محبوبا فى رومانيا ، أو فلنقل إنه كان معبود الجماهير فى رومانيا .

وصحيح أن هذه الجماهير كانت زوجته وأبناءه والقوات الخاصة بقمع الشعب ، وليس هذا العدد كبيرا بالنسبة للشعب الرومانى ، ولكنه عدد لا بأس به على أى حال ، وهو العدد المسلح ، وهذه هى قيمته الأولى وميزته الأرجح . . . فهو يستطيع فى أى مناقشة أن ينهى النقاش بطلقة رصاص . . .

ما علينا ، لانريد أن نخرج على الموضوع ، موضوع النفق أساسًا . وكان

النفق الفاخر الذى يمتلئ بقاعات الشراب والمصاعد ، ينتهى أخيرا إلى مطار فيه طائرة تستعد للإقلاع الفورى .

ما الذى كان يفكر فيه الديكتاتور وهو يأمر ببناء هذا النفق ، إلى أين كان ذاهبا بهذه السرعة ، ولماذا تنتظر الطائرة فى هذا المطار ومحركاتها تشتغل ؟

هل كان تشاوشيسكو من العرافين الذى يتنبئون بالغيب ، أم إنه كان يتصرف هنا مثل رؤساء العصابات حين يؤمنون موضوع فرارهم قبل أن يبدءوا فى ممارسة نشاطهم الإجرامى ، إن موضوع نفق تشاوشيسكو صعب ، ومحير وغامض ، ولكنه يستحق بذل مجهود أكبر .

الرفيــق الشــيوعى

اختفى صديق شيوعى من أصدقائنا . كان نادرا مايختفى ، ولكنه بدأ يتواري منذ أحداث الصين .

قابلناه أثناء ثورة الشباب فى الصين ، وتجمعهم فى ميدان السلام السماوى قلنا له : أيها الرفيق ماهو تفسيرك لما يجرى . قال : ما الذى يجرى . قلنا له : هذا الخروج لمليون شاب مثقف من شباب الصين وأبناء الجامعة ، هذا الخروج من أجل مزيد من الحرية والديمقراطية والخبز .

قال صديقنا ـ بصلف ـ هؤلاء عملاء المخابرات الامريكية . إنها هى التى توجههم .

انفجرنا فى الضحك ، وسألناه : كيف تجند المخابرات الأمريكية مليونا من طلبة الجامعة وشباب العمل أليست هذه مبالغة ؟

قال الرفيق الشيوعى : إذا لم يكونوا مجندين فهم مخدوعون لقد غرهم وبهرهم بريق الحضارة الامبريالية اللعينة .

قلنا له : إن عالم الشيوعية يتهاوى أيها الرفيق ، فاخرج بجلدك منه قبل أن ينهار البناء على رأسك .

قال : العالم الشيوعى بخير ، وسيقمع جيش الشعب أعداء الشعب من الخونة وعملاء الامبريالية .

قلنا له : أيها الرفيق ، إن الدنيا تتغير والأفكار هى الأخرى تتغير والعالم الذى تصوره أسلاف الشيوعية لم يعد موجودا ، وبالتالى فإن قوانين الأمس وتصورات الماضى ، ليست بالضرورة صالحة لعالم اليوم .

قال : هذا قرن الاشتراكية ، وهو القرن الذى تتحول فيه الاشتراكية إلى شيوعية انتظروا المفاجأة . وانتظرنا المفاجأة ولكن شيئا لم يحدث ، وأثناء فترة الانتظار قرأنا كتاب « البيروسترويكا » لجورباتشوف .

وقلنا للرفيق الشيوعى :

هل قرأت هذا الكتاب ؟

قال : الصفحات الأولى منه .

سألناه : ما منعك من قراءته كله ؟

قال : نظارتى تحتاج إلى تنظيف وتلميع ، والكتاب لايشجع على القراءة إنه يردد أفكارا غريبة على الشيوعية . وهو يهدم كل الصرح الاشتراكى العظيم .

قلنا له : الكتاب لايهدم شيئا ، إنما هو يصور بأمانة تاريخية انهيار البناء الاشتراكى أثناء تطبيقه الواقعى .

قال الرفيق الشيوعى : هناك مؤامرة ، أنفى لايكذب أبدا .

قال له أحدنا : لماذا لا تقول إن هناك واقعا جديدا يستلزم أفكارا جديدة .

قال : لا ، لا ، بل هناك مؤامرة .

ثم مرت الأيام ووقعت أحداث المانيا ، وسقط سور برلين . واندفع مليون المانى شرقى يعيشون تحت ظل الحكم الأحمر إلى برلين الغربية .

قلنا للرفيق الشيوعى : ما هو تفسيرك لما يجرى فى ألمانيا .

قال : هذا أعظم إنجاز للاشتراكية ، أقصد سقوط سور برلين .

قلنا له : ولكن عدد الفارين من جنة الشيوعية إلى جحيم الغرب يتجاوز المليون .

قال الرفيق : العدد لايهم المهم أن الشيوعية أسقطت سور برلين ليرى الألمان الشرقيون بؤس ألمانيا الغربية وتعاستها فيعودوا إلى أحضان الشيوعية وهم أشد حبا وأكثر اقتناعا .

قلنا له : ولكنهم لم يعودوا .

قال : ربما تعطلوا فى المواصلات .

قلنا له : ماذا تقول إذا لم يعودوا ؟

قال : أقول « العود أحمد » .

ومرت الأيام وتداعت أحداث أوروبا الشرقية كلها ، وتحركت بولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، وكانت حركة الأحداث تجرى بسرعة فاقت توقعات الراصدين والمحللين .

وبحثنا عن الرفيق الأحمر فلم نجده ، لقد اختفى فكأن الأرض انشقت وابتلعته وسألنا عنه معارفه فقالوا إنه سافر إلى ألمانيا ليقنع الألمان الشرقيين بالعودة إلى بلادهم ، ويقنع الألمان الغربيين بالهرب إلى ألمانيا الشرقية . . وتمنينا له دوام السفر .

رجل أعمال ... ولكن !

نسيت اسمه لصعوبته .

ولكن ملامح وجهه كانت منحوتة بشكل يصعب على المرء نسيانها . . . كان زميلا لنا فى المدرسة الابتدائية وأيضا المدرسة الثانوية ، ثم لم نره بعد ذلك . . .

خرج ذات يوم من المدرسة ولم يعد . نسيت أن أحدثكم عن ملامح وجهه .

إن جبهته ضيقة ، حتى يمكن القول إنه بلا جبهة . إن شعر رأسه ينبت بعد سنتيمترين اثنين من حاجبيه ، وفى عينيه نظرة زجاجية لاترى . . . وتحت عينيه الضيقتين الغبيتين أنف حاد مقوس ، وذقن عريضة .

وكل قطعة من ملامح وجهه فى حد ذاتها ليس لها معنى ، بعضها يعطى انطباعا قويا بالغباء والبلادة ، وكان ـ س ـ مشهورا فى المدرسة كلها بأنه أغبى تلميذ ، كان المدرس يوقفه فى حصة الطبيعة مثلا ويسأله .

ما اسم الفراغ الذى وصل إليه تورشيللى فى تجربته . . . إن السؤال ينطوى

على الجواب ، اسمه فراغ تورشيللى . . . كان السؤال يوجه إلى (س) فيقف أمامه حائرا ، كأنه يقف أمام طلسم من طلاسم الجن ، كان المدرس يستحثه : تكلم ياحيوان . . . اسم العالم تورشيللى صنع هذا الفراغ فى تجربة شهيرة . . . ما اسم الفراغ . . .

كان (س) يدير رأسه يمينا ويسارا وينظر إلى السقف ثم ينظر إلى وجوه الطلبة ، وهم يهمسون له بالجواب ، ولكنه كان لايفهم ويكتفى بابتسامة بلهاء . وفى جميع الحصص كانت غباوته تشتد وتنمو وتكبر ، وكان يخيل إلينا أنه صغير العقل أو بلا عقل . . . أو فلنقل إن عقله كان عاجزا عن الفهم بصفة عامة . . .

كان يرسب فى جميع المواد ، ويعيد السنة مرة أخرى ، وبعد عدة أعوام ينتقل إلى السنة التالية ، ويرسب فيها فى جميع المواد ، وفى السنة الثانية من وجوده فى المدرسة الثانوية ، خرج ولم يعد ، وقد ظل عالقا بذاكرتنا فترة طويلة كنا نضحك كلما تذكرناه ، ثم مرت الأيام وانسحبت عليه ستائر النسيان واختفى فى تلافيف الذاكرة . . .

أخيرا برز (س) إلى الحياة . . . لقيته فى مكان لم أكن أتصور أبدا أن أراه فيه . . .

كان هناك اجتماع لرجال الأعمال ، وفوجئت به بينهم . . . تذكرت ملامح وجهه على الفور ، وتذكرت فراغ تورشيللى وزم على الضحك ، قلت لمحدثى : من يكون صاحب هذا الوجه الغبى ؟

قال هذا (س) رجل الأعمال المصرى الشهير ، ويقال إن ثروته تتعدى المليارات . . . . وهو أحد خبراء السوق العالمى وقد رشحته الشائعات منذ

عامين لمنصب اقتصادى كبير ، ولكنه رفض . . . اكتسحتنى موجه من الدهشة . كيف تحول التلميذ البليد إلى عبقرى ؟

نحن أمام أمر عجيب ، إما إن مدارسنا ليست دليلا على شىء ، وإما إن مناهجنا تطرد الأذكياء وتقبل الأغبياء ، وإما إن دنيا رجال الأعمال تسلم عرشها لمن لا يستحقها ، وتمنح الحلق لمن ليست له آذان ، وإما إن عبقرية صنع النقود هى عبقرية خاصة لاعلاقة لها بالتعليم والمدارس . . . لم أعرف أى جواب هو الصحيح . . .

صافحته فلم يعرفنى . . لقد مرت سنوات كثيرة على فراقنا ، وجلست جواره على مائدة العشاء فتجاذبنا أطراف الحديث ، ذكرت له هامسا أننا كنا زملاء دراسة قديمة . . . ذكرت له اسم المدرسة فابتسم نفس ابتسامته البلهاء القديمة حين كان الاستاذ يسأله عن فراغ تورشيللى . . . لم يعلق بشىء وتجاهلنا تماما بقية السهرة ، ومضيت أتناول الطعام وأنا حائر أفكر فى تصاريف الزمان وأعاجيب المكان .

يســـار العـالـم الثـالث

اليسار فى العالم الأول فى مأساة ، واليسار فى العالم الثانى فى كارثة . واليسار فى العالم الثالث يعيش فى بلهنية من العيش . . . هل تذكرون هذه الحكمة ؟ كانوا يكتبونها فى كتب الأدب القديمة المسجوعة ، كانوا يقولون : وعاش التاجر فى بلهنية من العيش ، وتعنى أنه عاش فى رخاء وسعادة باختصار تعنى أنه عاش مرتاح البال ، وهذا هو موقف اليسار فى العالم الثالث من أتباع اللينينية الماركسية .

إن الأحداث التى وقعت فى الاتحاد السوفيتى ودول أوروبا الشرقية كانت فى نظرهم انتصارا للماركسية ، وانتصارا للتطبيق الاشتراكى . وهذا الإحساس يذكرنى بموقفنا فى مصر من نكسة يونيو ، كانت الأنباء الأولى التى حملتها نشرات الأخبار فى الإذاعة تقول : اسقطنا للعدو ثمانى طائرات . وكان الناس فى المقاهى يجلسون فى مقاعدهم أمام أكواب الشاى والقهوة ، فاذا سمعوا الخبر وقفوا جميعا وقالوا : هيه ، وتنقلب أكواب الشاى وفناجين القهوة بسبب الحماس الذى يذكرنى بحماس الجماهير الغفيرة حين تشهد مباراة لكرة القدم . . .

إن كل هدف يصيب الشبكة يوقف الجمهور على حيله ، كأن هناك زنبلكا يشتغل أوتوماتيكيا ، إذا دخلت الكرة فى الشبكة وقف الجمهور على الفور وقال : هيه ، وهى صيحة هائلة تصدر من المعسكرين المتنافسين ، وهى تعبر عن فرح الفائز ، كما تعبر عن غضب المهزوم فى الوقت نفسه .

ومضى الراديو ينقل خلال اليومين الأولين من نكسة يونيو أخبار الطائرات التى سقطت . على الظهيرة كانت الطائرات التى أسقطت ٤٨ ، وفى المساء ارتفع عددها إلى ثمانين ، وفى اليوم الثانى دخلنا فى المائة الثالثة .

وفى اليوم الثالث ذكر الراديو خبرا غريبا ، كان الخبر يقول : إن قوات الدفاع المصرية تقاتل عند خط الدفاع الثانى ، ولم يقل الخبر ماذا حدث للخط الأول ، ولا أين يقع الثانى ، وفى اليوم الرابع أو الخامس طلبت مصر رسميا وقف إطلاق النار ، وبدأت الحقيقة تبزغ كالجحيم حين تسعر من أهل الجاحدين . وعرف المصريون أن الحرب انتهت بعد ست ساعات ، ولم تكن الطائرات التى اسقطت سوى طائرات ورقية يطيرها الوهم وعرفنا فيما بعد كيف سرقتنا السكين ، وهو تعبير مصرى يعنى تمام الغفلة عما حدث . وبدا هذا الموقف فكاهيا داميا . ومن المآسى ما يضحك بسبب تركيبته الغريبة التى تدخل فيها الغفلة .

هذا الموقف يعيشه اليوم أبناء اليسار فى العالم الثالث ، إن بعض كتاب اليسار فى مصر ينظر إلى ما يجرى فى الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية . ويلاحظ أن سقف الاشتراكية ينهار فى روسيا ، وهو يصف ما يراه بأوهامه فيحدثنا أن ما يحدث انتصار للاشتراكية أو يلاحظ كاتب آخر أن أوروبا الشرقية تنفض عن نفسها أكفان النظام الشمولى وتعود إلى الحرية . فيصف ما يجرى بأنه اقتراب من روح الاشتراكية . ويمكن القول إن روح الاشتراكية .

صعدت إلى بارئها أو هى بسبيل الصعود ، ومن رحم الأحداث يولد نظام جديد لا أحد يعرف كيف يكون بناؤه الداخلى أو صورته الخارجية ، وعلى الرغم من ذلك فإن الشيوعيين من كتاب العالم الثالث مازالوا يعيشون مع تروتسكى ولينين داخل كهف ، عمره سبعون عاما ومازالوا يرون الماضى فيتصورون أنهم يرون المستقبل ، ومازالوا يعيشون فى بلهنية عقلية كاملة . أليس مدهشا أن يرى المرء أوهام عقله أكثر مما يرى الحقيقة الواقعة ؟ .

سـور بـرلـين

يتراجع العالم الشيوعى بغير انتظام ، وربما يتراجع باضطراب مضحك أمام رغبة أتباعه فى الحرية . . . والخبز .

لقد أنكرت المادية الجدلية وجود جنة فى العالم الآخر ، رفضت أن تنظر لأبعد من العالم القائم لا الآخر . ومضى فلاسفتها يسخرون من هذه الجنة الوهمية ، ومضوا يتحدثون عن الجنة الفعلية التى تعد بها الاشتراكية .

قالوا إن الدين لون من ألوان المخدر ، هو شىء يشبه الأفيون الذى يلتهم إرادة المرء ، ويجعله يستسلم لبؤسه ، ولا يسعى لتغيير واقعه . كان هذا كله منذ أكثر من سبعين عاما ، وهاهى الأيام تمر ، وهاهى الجنة الموعودة تسفر عن حقيقتها كجحيم يخلو من الخبز والحرية .

ولقد انفجرت أول قنبلة داخل الجنة الاشتراكية المزعومة حين اضطر الاتحاد السوفيتى لاستيراد القمح من أمريكا ، وتساءل فلاسفة الاشتراكية بينهم وبين أنفسهم كيف تستورد الجنة غذاء أساسيا كالقمح ؟ . ولكنهم مضوا يقدمون تبريرات ، معظمها له وجهة نظر لها قيمتها ، قالوا مثلا إن السباق النووى وسباق الصواريخ والصواريخ المضادة بين الكتلتين قد أوقعا الاتحاد السوفيتى

فى مأزق الدخول فى سباق التسلح وهو مأزق قاد إلى فراغ سلة الخبز . .

على الرغم من هذا كله . . . وربما بسبب هذا كله . . . قضت الأيام على حلم الجنة الموعودة على المستوى المادى . وبقى المستوى المعنوى . . . المتصل بالحرية . .

لقد اكتشف الشعب الذى يعيش تحت ظلال الزيزفون الشيوعى أن الحرية قد غافلت رغيف الخبز واختفت قبله ، ولقد تم هذا الاكتشاف الإنسانى فى وقت واحد تقريبا فى معظم الدول الشيوعية أو الدول التى تدور فى فلك النظرية الشيوعية ، وهكذا ظهر كتاب جورباتشوف «البيروسترويكا» وظهرت معه سياسة المصارحة وفكرة إعادة البناء بعد هذه القنبلة وانفجرت مجموعة متلاحقة من الانفجارات فى ألمانيا والمجر .

وهكذا تهاوى سور برلين الشرقية ، وبدأت هجرة الألمان الشرقيين إلى ألمانيا الغربية ، وتروج هذه الأيام « نكتة » فى ألمانيا الشرقية ، وهى تقول إن صديقا ألمانيا همس لصديقه : إن رئيس ألمانيا الشرقية سيلغى سنة ١٩٩١ نظام جوازات السفر تماما . ويسأل الصديق صديقه : لماذا يفعل ذلك ؟

ويرد الصديق : لأنه لن يكون فى ألمانيا الشرقية بعد عامين إلا ستة اشخاص بالعدد . . . يعرفهم رئيس الدولة بأسمائهم .

وبغض النظر عن موجة السخرية التى تنبعث من العالم الشيوعى وتعكس ضيقه بهذه البصلة التى أفطر عليها بعد صوم طويل وجوع طويل . بغض النظر عن هذا كله يمكن القول إن هناك زلزالا يقع فى العالم الشيوعى كله . وهو زلزال نبع من لحظة اكتشاف جماعية ، وهى لحظة اكتشاف لامجال فيها لظن أو تردد .

لقد انكشفت الحقيقة بعد سبعين عاما ، انكشفت معها أخطاء الممارسات التى ملأت قرنا أو أقل من قرن ، وحمل هذا الاكتشاف صدمة للعالمين الشرقى والغربى معا ، وهاهم أبناء الاشتراكية يهرعون إلى أبناء الرأسمالية . وغدا يهرع الجميع إلى فكر آخر يستطيع أن يلبى حاجة الإنسان المادية والروحية معا . . . . إن النظر إلى الإنسان باعتباره مجموعة من الوظائف والأجهزة المادية نظر يشوبه القصور . كما أن النظر إلى الإنسان باعتباره كائنا خلق ليزيد من دخله المادى ويعيش فى الرخاء المادى وحده نظر يشوبه القصور . . .

إن الإنسان أعقد كثيرا من حاجات الجسم ورغباته . . . متى تكتشف البشرية أن الحل يكمن فى رؤية جديدة للإسلام .

ذقن أبى الهول

أحيانا يستيقظ ضمير العالم فيثير قضايا لها أهميتها الثقافية ثم يأخذ قرارات مبدئية فى هذه القضايا ، ثم يسود الصمت ويعود الضمير العالمى ليغط فى نومه .

من القضايا التى أثارها العالم قضية الآثار القديمة التى تسربت من موطنها الأصلى ، ووجوب رد هذه الآثار لأصحابها . وهكذا بدأ الحديث عن ذقن أبى الهول ، وهى ذقن تحليها لحية لطيفة ، وهى موجودة فى انجلترا ، وقد قيل إنها سترد إلى مصر ، قلت فى نفسى هذا خبر يهم ابا الهول .

ماذا لو ذهبت إليه وأجريت معه حوارا صريحا حول لحيته الغائبة التى تعود إليه بعد كل هذه السنين .

ذهبت إلى صحراء الهرم . . . كان أبو الهول نائما يغط فى نومه وكان يشخر شخيرا حجريا عجيبا ، وعلا صوت الشخير حتى أيقظه من نومه .

نظر أبو الهول أمامه فرآنى . . . قال بالصمت البليغ ماذا تريد ؟

قلت له : يا أبا الهول أيها الصمت الصامت الذى يصرخ بكلمات الحكمة

وسداد الرأى أيتها العين التى تشاهد ولا ترمش أيها الشاهد على العصور والدهور .

قال أبو الهول : أوشكت مرارتى أن تطق فادخل فى الموضوع وقل ماذا تريد؟

قلت له : ذقنك العظيمة ولحيتك الأعظم .

قال : ما بالهما ؟

قلت : إنهما يوشكان على الرجوع إليك .

قال أبو الهول : لقد أسقطهما الزمن ورحلت بهما الشيخوخة وما أسقطه الزمن لا يعيده الإنسان .

قلت له : أنت تبالغ قليلا شأن المصريين ، أنت لم تزل فى عنفوان الشباب .

حاول أبو الهول أن يبتسم ساخرا ، ولكن عضلات فكه الحجرى لم تطاوعه على الابتسام فكشّر .

قلت له : أرجوك . . . لاتكشر فى وجهى . إننى لا أستطيع احتمال الإحساس بأنك غاضب .

ـ قال : لن تفهمنى . إن الحجر لا يحس الحجر . . .

قلت : ماذا تعنى ؟

قال : أعنى ما أعنيه .

قلت له : أكاد أحس أن ثمة إهانة توجه إلىّ ولكننى أستبعد ذلك .

قال : نحن فى زمن لا يستبعد فيه شىء فلا تستبعد شيئا .

قلت له : إننى واحد من أحفادك .

قال أبو الهول : لست من أحفادى إننى أتبرأ منك .

قلت له : أنتسب إلى الفراعنة فكيف تتبرأ منّى ؟

قال : أرى لديك زهوهم وعجرفتهم ، ولا أرى عندك قوتهم أو قدرتهم على العمارة والبناء . . . كيف تنتسب إليهم ؟

قلت بالميلاد . .

قال : الميلاد وحده لايكفى .

قلت له : لن أناقشك . أنت فى مقام جدى ولن أجترئ على مناقشتك .

قال : لماذا لا تعترف بالهزيمة .

قلت له : لقد جئت أهنئك فكيف اعترف بالهزيمة ؟

قال : على أى شىء تهنئنى ؟

قلت : على قرب عودة ذقنك ولحيتك .

قال : من تصدع قلبه لم يعد يهتم بذقنه .

سألته مشفقا : لماذا تصدع قلبك ؟

قال أبو الهول : تسألنى لماذا تصدع قلبى ألا تفهم شيئا على الإطلاق ، ألا تحس بشىء على الإطلاق . المفروض أنك بشر .

قلت له : بالقطع بشر .

قال : بل بالقطع حجر والحجر لا يحس الحجر .

مضى أبو الهول يرددها فى حزن وينخفض بها صوته حتى استحال همسا وابتلعته أصوات الرياح التى تهب على الصحراء .

المحتويات

رقم الإيداع ٥٩٤٤ / ١٩٩٤
I.S.B.N 977 - 09-0218 - 7

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - فاكس ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨٦٧٢١٣